أقدام حافية فوق البحر

كلمـــة

كاتب القصة غيـر المؤرخ .. إنه يستطيع أن يطلق خياله في التـاريخ ويصوره كـما يريد .. إنه حـر .. يرسم شخـصيـات الحادث كمـا يصورهم خياله و يحركهم كـما يشاء ويضع على ألسنتهم ما يريد من آراء .

ومع اعتزازى وفـخرى بالأبطال لهذه القصــة ، أرجو منهم أن يعذروا خيالى .

إحســـان

١

كان ذلك فى شهر مايو عام ١٩٦٧.. والمركب « علم الروم » يدخل إلى شاطىء شرم الشيخ على قمة خليج العقبة.. إنه مركب صيد صغير لا يتجاوز طوله عشرة أمتار، والريس جادالله يقف معلقا فوق سارى المركب يتفرج على شرم الشيخ كأنه يراها لأول مرة.. إنه شاب قد لا يتجاوز الثانية أو الثالثة والعشرين من عمره، ووجهه الوسيم الهادىء الأسمر لا تبدو عليه لفحات المعاناة التى يعانيها الصيادون وأولادهم فى معركتهم المستمرة مع السمك.. وكان يرتدى قميصا مهلهلا فوق صدره العارى، وبنطلونا تآكلت أطرافه، وقدماه حافيتان وإن كانتا لا تبدو فيهما شقوق الأقدام التى تعودت الحفاء.

واقترب المركب من الشاطىء وقبل أن يصل إلى مكانه انطلق صوت عنيف من ناحية الشاطى ومن وراء مدفع صارخا :

إنزل وإلا أطلقت النار.

وصرخ الريس جادالله من فوق السارى :

- يا جدع إننا بلديات.

وعاد الصوت يصرخ :

- إنزل وإلا أطلقت النار.

ونزل جادالله من فوق السارى بسرعة واقترب من الريس محمد عويضة الذى يمسك قيادة المركب وأمره بإلقاء الخطاف رغم أنهم لا يزالون فى منتصف الخليج الصغير الضيق.. واستجاب عويضة فى استسلام دون مناقشة.. الريس عويضة فى الستين من عمره على الأقل ووجهه الأسمر الغامق مجعد بآثار عمر طويل قضاه فى معارك صيد السمك، وهو يرتدى الزى التقليدى المعروف لصيادى البحر وأولاد الشاطىء من بورسعيد إلى الغردقة، وكان يتلقى أوامر جادالله وهو ينظر إليه كأنه فرح به وبين شفتيه ابتسامة هادئة كأنه يحتضن بها ابنه.

ووقف المركب الصغير وسكت صوت آلات الموتور فى داخله، ونادى جادالله اثنين من الصيادين عاوناه على إنزال قارب الإنقاذ إلى البحر، واعتلاه الثلاثة فى طريقهم إلى الشاطىء.. إنه قارب قديم متآكل ما كاد يلمس البحر حتى بدأت المياه تتسرب إلى داخله وتكاد تغطس به وفيه إلى الأعماق.

ونزل جادالله إلى الشاطىء بأقدامه الحافية وقميصه المهلهل وبنطلونه المتآكل، وألقى الشاويش قبضته الثقيلة على كتفه وأمسك اثنان من الجنود بزميليه، وقال جادالله فورا :

– خدنى إلى حضرة القائد فورا.

ونظر إليه الشاويش فى استخفاف قائلا :

– إنى آخذك حيث أريد لا حيث تطلب.

وقال جادالله فى صوت سريع كأن الأمر خطير :

– الموضوع مهم.. من فضلك خذنى إلى حضرة القائد.

وقال الشاويش :

– الأهم من المـوضـوع هى الأوامـر.. والمـوضـوع عندك والأوامر عندى.

وسكت جادالله وهو يسيـر تحت القبضة الملقاة فوق كـتفه ويتلفت حواليه كأنه يبحث عن أحد.

وعاد الشاويش يتكلم قائلا :

– يا ترى.. ماذ أوصلكم إلى هنا.

وقال جادالله :

– إننا نصطاد.

وضحك الشاويش ضحكة كبيرة وقال :

– والله زمان.. مضى سنين ولم يفكر أحـد أن يصطاد فى هذه الجونـة.. كنتم تصطادون من البحـر أم من فوق البـحر.. تصطادون سمكا أم شيئا آخر غير السمك .. كابوريا مثلا..

ولم يرد جاد الله.. واسـتمر سـائرا تحت قبضـة الشاويش وهو يتلفت حـواليه.. إنهم جنود من فرقـة الصاعـقة.. لم يكن يدرى أن الصاعقـة ترابط فى شرم الشيخ.. وانتهـى به السير إلى أن وجـد نفسـه يدخل هو وزمـيلاه إلى مـيس الضـبـاط مقبوضا عليهم.. ووجد أمـامه ضابطا كبيرا برتبة لواء لابد أنه قائد المنطقة.. وبجانب اللواء ضابط برتبة عقيد.. وكان الاثنان فى حالة استرخاء وأمام كل منهم كوب شاى لم يكن يبدو أنهم يسـتقبـلانه كهيئـة محكمـة أو أنهم يهـتمان بـأمره.. وروى الشاويش تفاصيل إيقاف المركب وإنزال الريس إلى الشاطىء.. مقبـوضـا عليه تحت التهـديد بإطلاق النار.. وجادالله ينظر إلى القائد ثم ينقل نظره إلى الشـاويش كأنه يريد أن يقول شـيئا.. ولاحظ نظرات جاد الله.. وفهم.. فـهم أن جادالله يريد أن يختلى به وبالقيادة بـعيدا عن الجنود الذين قبضـوا عليه.. ورغم ذلك

أمر الشاويش بتفتيش جاداالله ومن معه.. وتمت عملية التفتيش في عنف وقسوة كأنهم يريدون أن يفتقوا تحت جلده.. وأخرجوا من جيب جاداالله علبة سجائر كليوباترا وولاعة وبطاقة تحقيق شخصية عبارة عن ورقة قديمة تآكلت وضاع لونها وهى تحمل صورته واسمه.. محمود جاد الله.. ومهنته.. صياد.. وقلب القائد فى البطاقة وبحلق فى أوراقها طويلا.. ربما كان أهم ما لاحظه أن الصورة تبدو أجد وأنظف من أوراق البطاقة وكأنها التقطت منذ أيام.. ورفع القائدة رأسه من فوق البطاقة وأمر الشاويش وجنوده بأن يتركوا الصيادين الثلاثة وينصرفوا.. وما كاد الجنود يخرجون من باب الميس حتى اعتدل جاداالله فى وقفته واتخذ وقفة عسكرية وقال فى لهجة رسمية .

– ملازم بحرى عبدالحميد مهران.

ونظر القائد إلى الضابط الذى يجلس معه كأنه يبحث عن وقع المفاجأة على وجهه ثم عاد والتفت إلى جاداالله قالا :

– حدد .

وعاد جاداالله يقول فى لهجة عسكرية :

– مجموعة القناصات.. مكافحة الغواصات.. ومكلف بمهمة.

وقال القائد :

– أوراقك .

ورد جاداالله وهو لا يزال منتصبا فى وقفته :

– ليس معى أوراق إلا هذه البطاقة .

وابتسم القائد قائلا :

– هذه البطاقة هى التى جعلتنى أشك فى شخصيتك.. ولكن الشك لا يكفى.. يجب أن نتأكد.

وقال العقيد :
- أعتقد أننا يجب أن نتصل بالقيادة البحرية.
وكان فى شرم الشيخ مركز قيادة بحرية بجانب مركز القيادة البرية.. وتم الاتصال بالقيادة البحرية لإيفاد مندوب عنها يحضر التحقيق.. وإلى أن يحضر لم يكف القائد والعقيد عن توجيه الأسئلة إلى جاد الله.. إلى أن قال العقيد :
- اسمع .. إن أخى هو المقدم بحرى فؤاد البنا وهو يتميز بشىء يعرف به.. فهل تعرفه.
وقال جادالله :
- أعرفه وأتشرف بصداقته ويميزه جرح عميق فوق جبينه ناحية اليمين.
وقال العقيد فرحا :
- هذا صحيح.
وقام وصافح جادالله ضاحكا وهو يقول :
- الحمد لله على السلامة.. تفضل.
وابتسم القائد أيضا وصافح جادالله ودعاه للجلوس وطلب له شايا وهو يسأله :
- هل على المركب أحد آخر من البحرية ؟
وقال جادالله :
- عامل اللاسلكى فقط.. والبرنس عويضة وثلاثة من رجاله صيادون.. كل طاقم المركب ستة أشخاص بما فيهم أنا.
وجلس جادالله يشرب الشاى.. وعاد زميلاه إلى المركب التى عادت ورفعت خطافها لتقترب من شاطىء شرم الشيخ.
كان جادالله أو الملازم بحرى عبدالحميد مهران قد تخرج من الكلية البحرية عام ١٩٦٥ ومنذ كان صبيا وهو يعيش

البحر بخياله.. لم يكن يعيشه كعلم ولا كهواية ولكنه يعيشه كخيال لحياة منطلقة تسع العالم وينتقل فيها من ميناء إلى ميناء، في كل ميناء مغامرة وحكاية وامرأة.. وقد حاول كمعظم العسكريين أن يهرب من خياله وأن يتمسك بروتين المظاهر المدنية التي تتباهى بها العائلات الكبيرة فقرر وهو في الثانوية أن يلتحق بكلية الهندسة.. ولكن مجموع درجاته التي خرج بها لم تؤهله للالتحاق بالهندسة فأصر على الالتحاق بالكلية البحرية واضطر والده أن يوافق على أمل أن يستطيع يوما أن يترك الأسطول البحري ويصبح قبطانا لباخرة مدنية كبيرة.. إن قباطنة البواخر يحققون أرباحا كبيرة.. شيء آخر غير سائق القطار أو قائد الطائرة.. إن القبطان على باخرته في مركز رئيس دولة.. ورؤساء الدول يستطيعون أن يأمروا بكل شيء وأي شيء حتى مع وجود مجلس الشعب أو المحكمة العليا الدستورية، أي حتى مع وجود الشركة صاحبة الباخرة ومع وجود قوانين الملاحة وقوانين الجمارك.. كان هذا هو رأي والده.. ولكن عبدالحميد كان شيئا آخر.. كان ما يغريه بالبحر هو المغامرة.. شق الماء للوصول إلى الأرض .. شق الروتين الاجتماعي الذي يعيشه مع عائلته الكبيرة للوصول إلى المجهول.

وقد عرف بين زملائه بإقدامه الجريء على كل مغامرة يتعرض لها.. كان من هواة العمليات الصعبة، وكان يبالغ في صعوبة كل عملية حتى يرضي مزيدا من هواية المغامرة.. وربما لهذا اختار أن ينضم إلى مجموعة القناصات التابعة للسلاح البحري والتي تتحمل مسئولية البحث عن غواصات العدو وتدميرها.. ولم تكن تبدو عليه أبدا روح المغامرة،

ولم يكن يتميز بطابع الشاب المغامر، فهو جاد فى عمله دائما، قليل الكلام، ووجهه الأسمر الوسيم الذى يرتفع فوق قامته الرفيعه لا يعبر عن شىء مما فى نفسه.. لا يضحك ولا يثور بل ولا يبتسم إلا نادرا.

وكان مغامرا أيضا فى حياته الخاصة ولكنه كان أيضا يضع مغامرات شبابه فى إطار جدى صامت.. لا يبدو عليه انطلاق الشباب فهو لا يتردد على المراقص والحانات ولا يكشف عن إعجابه بفتاة حتى لو كان يسعى إليها.. كل شىء فى السر، وكل شىء مرسوم.. وهو لا يريد أن يتزوج.. إنه مقتنع بأن الزواج ليس مخصصا للبحارة.. كيف يحتفظ بامرأة وهو يغيب عنها شهورا إلى أن يعود إليها.. ما ذنبها حتى تتحمل هذه الشهور ثم من أدراه إنها تتحمل.. وإذا كان يقال أن للبحار امرأة فى كل ميناء فهذه هى الحياة الطبيعية للبحار.. وهذا ما يجب أن تقبله أى أمرأة تريد بحارا.. أن تكون ميناء لهذا البحار ثم تتركه لميناء آخر.. وقد يعود إليها أولا يعود وقد يبتلعه البحر ليعيش فى القاع مع سمكة.. وكان يسمع عن كثير من أحوال زوجات البحارة فى غيبة أزواجهن وكان يعذرهن ولم يكن يلومهن على الخطيئة ولكنه كان يلومهن لأنهن تزوجن بحارة.. إن التى تتزوج بحارا مفروض عليها الصيام ثلاثة أرباع العام.. أى منطق يتحمل هذا.. إن المرأة إما أن تدخل الدير وتعيش الحرمان الكامل أو تتزوج رجلا يتحمل مسئولية إشباعها، أما أن تتزوج رجلا يفتح شهيتها ثم يعذبها بالحرمان فهذا حرام.

وكان هذا هو المنطق الذى يسيطر على كل علاقاته بالفتيات اللاتى التقى بهن فى الاسكندرية منذ أن عاش هناك

كطالب فى الكلية البحرية ثم بعد أن أصبح ضابطا بحريا.. كل منهن فتاة ميناء.. وكل بلد يقيم فيه هو ميناء الاسكندرية أو القاهرة ولم يكن قد ارتبط بالكثيرات.. ثلاث بنات كل منهن عرفت أنه لا يتزوج فتركن مركبه.. تركن الميناء التى يرسمها لنفسه مع كل منهن.. إلى أن التقى بزَينب.. زيزى.. إنها تريده كما هو وكما هى.. إنه لن يتزوج.. لا يهم.. وهو يغيب فى البحر شهورا.. بل إنه سافر إلى روسيا فى مهمة دراسية وغاب فيها ستة شهور.. لا يهم.. لن تسأله عن لياليه هناك.. ولم تغضب عندما لم يسألها عن لياليها هنا.. ولكن كان هناك شىء لم يحسب حسابه.. لقد تعود عليها.. أصبحت زيزى بالنسبة له ليست مجرد ميناء يرسو عليه.. إنها حياة تتكامل مع حياته.. هل يتزوجها هذا البحار.. لا يدرى.. وهى أيضا لا تدرى.. والمجتمع بدا يتهامس حولهما.. وأهله بدأوا يواجهونه.. إنهم لا يريدونها.. لا تشرفهم.. وهو كعادته صامت.. يترك الناس تتكلم ولا يتكلم..

إنه يعيش فى ميناء..

وزيزى ميناء.

وبيته ميناء.

والأرض ميناء.

وكل هذا الكلام كلام موانىء.

وما ينتظره دائما هو المغامرة.

والمغامرة لا تكون إلا فى البحر.

وتلقى الملازم ثان عبدالحميد مهران استدعاء من شعبة العمليات فى السلاح البحرى.. وكانت القوات البحرية مع باقى القوات المسلحة قد رفعت درجة الاستعداد ورغم ذلك لم يكن

أحد قد تأكد بعد أن الحرب ستعلن.. كانت الأغلبية تعتقد أن كل هذه الأستعدادات والتحركات فى القوات المسلحة هى مجرد مظاهرة سياسية لتغطية قرار قوات الطوارىء الدولية الذى أعلنه جمال عبدالناصر.. ولم يكن عبدالحميد يشغل فكره بأى احتمال.. حرب أو لا حرب.. إن كل ما كان يشغل فكره هو البحث عن عملية تشبع فيه شهوة المغامرة.. وكان كل ما جَدَّ عليه بعد رفع درجة الاستعداد هو أن زاد عدد فترات المرور التى تقوم بها مجموعة القناصات.

لا شىء أكثر .. لا شىء جديد .

إلى أن استدعى إلى شعبة العمليات.

ووقف يتلقى الأوامر الجديدة.

إنه سيقوم بعمليات استطلاع لاستعدادات وتحركات العدو على طول خليج العقبة حتى ميناء إيلات.. وستتم العملية من فوق مركب صيد.. ومطلوب منه أن يصل بهذا المركب إلى ميناء إيلات أو على الأقل يصل من فوقها إلى تجميع وتسجيل كل التحركات التى تتم هناك.. وهو من الآن يعتبر مجرد صياد مدنى ليس من حقه أن يرتدى الزى العسكرى.. بل سلم بطاقته العسكرية وهو واقف فى مكتب شعبة العمليات.. لم يعد معه ما يثبت أنه ضابط بحرى.. وتفاصيل العملية ستسلم إليه فى السويس.

وانطلق عبدالحميد إلى بيته وفى صدره فرحة لا يبدو منها على وجهه ولا حتى مجرد ابتسامة كطبيعته فى إخفاء كل أحاسيسه داخل صدره.. إنها مغامرة.. مغامرة مثيرة.. مغامرة فوق مركب لم يجرب الإبحار بها ولا التعامل معها.. بل إنه إلى الآن لم يسبق له أن أبحر فى خليج العقبة ولا فوق مياه البحر

الأحمر كله.. وهو يعلم خطورة العملية.. إن مراكب الصيد لا يأخذها العدو أبدا بمظهرها، وفى حالة الحرب تعامل مراكب الصيد معاملة الأساطيل البحرية.. وكل الدول تستعمل مراكب الصيد والمراكب التجارية كمراكز تجسس واستطلاع حتى فى أوقات السلم.. فإذا قام الأسطول الأمريكى مثلا بمناورات انتشرت حوله مراكب الصيد والمراكب التجارية السوفيتية فى مظهر برىء كأنها مجرد مركب فى طريقها لطلب الرزق.. والعكس .. فإذا قام الأسطول السوفيتى بمناورات فعشرات من مراكب الصيد الأمريكية أو التابعة لأمريكا تلتف حوله.. وحتى دون أن تكون هناك مناورات ولا حتى احتمالات حرب، فإن القوات البحرية فى كل العالم تعتمد على مراكب الصيد فى عمليات الاستطلاع.. وربما لهذا تشتد الأزمات بين الدول حول تحديد نطاق المياه الأقليمية التى تحرم على مراكب الصيد تعديتها لا حماية للثروة السمكية وإنما حتى لا تعطى مراكب الصيد مجالا أوسع للتجسس قريبا من شواطئها .. وأكثر من ذلك.. أن الأعلام ترفع فوق مراكب الصيد الكبيرة فى أعالى البحار وكثير من المراكب التجارية كلها أعلام كاذبة.. ومعظم الأعلام التى ترفعها المراكب التجارية الإسرائيلية أعلام كاذبة .. ليست أعلام إسرائيل.. إنما أعلام الدول الصغيرة فى أفريقيا أو أمريكا الجنوبية أو آسيا التى تبيع أعلامها للسفن التى تطلبها.

ووصل البيت وعقله مزدحم بالخطة التى يرسمها كأنه أصبح فعلا فوق مركب الصيد ووجد والده قد جاء من القاهرة لزيارته وقال له بسرعة :

– نقلت إلى السويس.

وابتسم الوالد فى راحة فقد جاء لزيارته خصيصا ليناقشه فى علاقته بزيزى. يجب أن يبتعد عنها حتى يسكت الاشاعات.. وقد صدر قرار إبعاده عن زيزى.. إنها لا تستطيع أن تلحق به هناك ومع الوقت ستموت الاشاعات.. وفرك الوالد يديه وهو يحمد الله.

وعبدالحميد خلع حلته العسكرية وارتدى قميصا وبنطلونا عاديين، وجمع بعض احتياجاته فى حقيبة صغيرة، ثم استأذن والده وخرج كما هو فى طريقه إلى السويس.. لم يتذكر زيزى حتى ولو بمكالمة تليفونية.. وودع والده دون أن يقول له شيئا عن مهمته الجديدة.. أسرار.. وكل إحساسه أنه يبحر والمركب تغادر الميناء.

ورسا فى ميناء الوصول.

السويس.

وبدأ يتلقى التعليمات التفصيلية لمهمته .. إن المركب التى سيبحر عليها يحمل اسم « علم الروم » وهو مركب صيد قديم متآكل لونه رمادى كالح ولا يزيد طوله على عشرة أمتار وله ساريتان وموتور يدور بالسولار ويملكه شيخ الصيادين الريس جاد الله.. وسيكون كل رجاله من رجال جادالله بمن فيهم الريس عويضة ما عدا عامل اللاسلكى ابراهيم المرجوشى فهو من رجال السلاح البحرى برتبة رقيب، وقد وضع فى داخل المركب جهاز لاسلكى من طراز روسى قديم، إن كل شىء فوق المركب يجب أن يحمل الطابع القديم حتى الخرائط ليس من حقه أن يحمل معه خريطة تفصيلية حديثة.. وليس من حقه أن يحمل بوصلة كهربائية وتكفى البوصلة المغناطيسية وتكفى آلة « السدس » التى يستعين بها البحارة

من قديم الزمان لتحديد الموقع.. لا شيء أكثر مما يعتمد عليه صغار الصيادين.

وقد تعرف بالريس جادالله وبالريس عويضة الذى سيبحر معه وعرف بقية أفراد الطاقم ولم يسترح إلى شخصية إبراهيم المرجوشي.. أحس أنه أقل صلابة وأكثر طراوة مما يجب أن يكون عليه من يتحمل مثل هذه العملية.. وقد بات ليلتها فوق المركب، وكان يريد أن يبقى عدة أيام قبل أن يبحر حتى يدرس طبائع الصيادين وحتى يتكلم لغتهم ولهجتهم ثم يدرس تفاصيل عملية الصيد.. إنه لم يصطاد فى حياته إلا بسنارة.. لا يفهم شيئا فى صيد الشباك.. يجب أن يتقمص شخصية الصياد تقمصا كاملا حتى يتأكد من تضليل العدو إذا حدثت أى مواجهة فى الطريق.. ولكن العملية عاجلة.. يجب أن يبحر فى الغد.. وسألوه فى مكتب قيادة العمليات :

– هل سبق أن أبحرت فى خليج العقبة.

وأجاب ببساطة :

– لا.. إنى فى حاجة إلى خرائط تفصيلية.

وقيل له :

– لن تحمل معك خرائط.. اكتف بأن تكون دائما فى وسط الخليج.

وكأن هذا يكفي.

وأطاع الأمر وتسلم أوراق الشفرة التى سيتخاطب بها مع القيادة.. وقال للريس جادالله قبل أن يبحر وهو واقف معه يشرف على إعداد المركب ويدعو له بالتوفيق.

– سأعتبر نفسى إبنك وأحمل أسمك.. هل تسمح ؟

وقال الريس جادالله وهو يضحك فخورا :

- يشرفنى يا سى عبدالحميد.. يشرفنا كلنا.. كل الصيادين.

وأبحرت المركب تحت قيادة الريس محمود جاد الله.. كما أصبح أسمه الملازم عبدالحميد مهران.

وكان الريس جادالله قد اختار هذا القميص المهلهل وهذا البنطلون المتآكل وبدأ يعود قدميه على الحفاء وأطلق شعر ذقنه ورأسه.. كأن هذا هو كل ما يستطيعه بالنسبة لنفسه حتى يتخفى فى شخصية صياد.

ومنذ اليوم الأول وهو يعتمد إعتمادا كاملا على الريس عويضة فى تأمين القيادة أى السير بالمركب فى الطريق الصحيح.. وكان يقف أحيانا ويتطلع فى البوصلة ليحدد الطريق بينما الريس عويضة لا يتطلع فى البوصلة أبدا.. إنه يقود المركب فى البحر كأنه يقود سيارة فى شوارع القاهرة.. كل سر فى قاع البحر أو على جانبيه واضح أمام عينيه كأنه يعرف أسماء الشوارع دون أن يحتاج إلى قراءتها .. وقال له الريس عويضة وهو يلاحظ اهتمامه بالبوصلة :

- بوصلتى هنا.. فى المخيخ.

وجادالله يقضى أغلب وقته معلقا فوق السارى يراقب ويستطلع وينتظر أى مفاجأة.. وينزل من السارى برهة ليحدد موقعه للقيادة بالشفرة عن طريق اللاسلكى، أو ليجلس مع رجال الطاقم حول صينية « المدفونة » ويمد أصابعه الخمس ليكبش الأرز والبطاطس والسمك الذى أصبح طعامه المفضل منذ اعتبر نفسه صيادا ثم يعود بسرعة ليقف فوق السارى لعله يرى شيئا.

والمركب الصغير يتحرك فوق الماء فى هدوء بطىء وجادالله مبهور بالمشاهد الطبيعية التى تمر به.. الجبال

المتعددة الألوان وشعب المرجان وزرقة المياه الصافية وقفزات السمك كأنه في رحلة على لنش سياحى يملكه مليونير.. إن نسبة الجمال فى البحر الأحمر وعلى شواطئه تزيد أضعافا على نسبة الجمال فى البحر المتوسط.. إنه بعد أن ينتهى من مهمته سيطلب أن ينتقل من مركزه فى الاسكندرية إلى أى مركز على البحر الأحمر.. هل تقبل زيزى أن تعيش معه على البحر الأحمر.. ويبتسم ساخرا من نفسه.. ليس من طبيعته أن يتخيل امرأة وهو فى البحر.. المرأة لا تخطر على باله إلا فى الميناء.. حتى لو كانت زيزى التى مضى عليه أكثر من عام وهو يرسو فوقها.. إن كل ما يجب أن يشغله هو الوصول إلى الميناء الجديد.. وعاد يبتسم ساخرا من نفسه.. ومر يوم.. يومان.. وهو معلق على قدميه الحافيتين فوق السارى.. وكل اتصالاته بالقيادة تنحصر فى تحديد الموقع، ولكن المركب بدأ يتلقى اشارات لاسلكية لا يفهمها لا هو ولا إبراهيم المرجوشى عامل اللاسلكى رغم أنها على نفس موجة الاتصال بالقيادة.. وكتم تعجبه وحيرته.. والمركب تقترب من شرم الشيخ على الشمال ويستطيع أن يلمح على اليمين جزيرة صنافير.. وأرسل إلى القيادة يحدد موقعه ويبلغ أنه فى طريقه ليرسو فى شرم الشيخ.. ولم يتخذ أى إجراء آخر لتأمين نفسه.. لم يخطر على باله أنه فى حاجة إلى أى تأمين .. والمركب لا ترفع علما تعرف به.. إنها مجرد مركب صيد صغير والتعليمات تفرض ألا يرفع عليها أى علم.. كما لم يحاول أن يتصل بأى مركز حراسة على شاطىء شرم الشيخ.. يكفى أنه أبلغ القيادة الرئيسية.. إلى أن فوجىء بالمدفع الموجه إليه.. والصوت العالى يصرخ من فوق الشاطىء.. إنزل

وإلا أطلقت النار.

واعتذر له اللواء قائد القيادة البرية وهو جالس معه في ميس الضباط وقال له إنه منذ عام ١٩٤٨ حدثت أكثر من محاولة تسلل إسرائيلي إلى خليج شرم الشيخ وكلها كانت تتستر في مراكب صيد، ولذلك كان يجب أن تتخذ الإجراءات.. وضحك العقيد قائلا :

– كنا سنطلق المدافع ترحيبا بك .

وقال جادالله وابتسامته تنضح بالحسرة :

– كنت أعتقد أنكم على علم بوصولي.. لقد أبلغت القيادة وأنا في البحر.

وقال القائد في بساطة :

– لم يصلنا شيء.

وعندما وصل ضابط القيادة البحرية وصحبه إلى مركز القيادة روى للقائد البحري خبر الإشارات التي كان يلتقطها ولا يستطيع أن يفسرها.. وتركه القائد ربما ليجري اتصالاته بمركز القيادة في السويس.. وعاد بعد أكثر من ساعة وقد استراح وجهه وعلت شفتيه ابتسامة كبيرة.. لقد تأكدت من شخصية الريس جاد الله.. وسأله :

– متى تسلمت قائمة الشفرة .

وقال جادالله :

– قبل تحركي بساعتين.

وقال القائد وقد اتسعت ابتسامته :

– لقد تغيرت الشفرة في نفس اليوم فلم تستطع أن تفسر الإشارات التي تتلقاها .

وذهل جاد الله.

كيف لم يبلغوه بتغيير الشفرة.

لا يهم .

إن كل مسئوليته محصورة فى مركب الصيد وليس من واجبه أن يتدخل فى مسئولية غيره أو يحاسب أحدا على مسئوليته.. وسلمه القائد الشفرة الجديدة بأمر القيادة الأعلى.

وبقى ليلته فى شرم الشيخ.. إنها المرة الأولى التى يجد نفسه هناك وكان يتمنى أن يبقى حتى يكتشفها لنفسه.. حتى يعيشها كأى بحار يعيش الميناء الذى يرسو فيها.. وربما كان يتمنى أيضا أن ينطلق من شرم الشيخ إلى دير سانت كاترين القريب الذى يسمع عنه منذ كان صبيا.. ولكنه لا يستطيع.. وقضى الليل يطمئن إلى تجهيز مركبه الصغير بكل احتياجاته.. وعند الفجر أبحر.. وعند الظهر كان فى داخل خليج العقبة.. ويوم.. ويومان..

وكل شىء هادىء.

إن الإبحار فى خليج العقبة هو جنة الهدوء.. والمبدع الأكبر.. الله.. يبدع هناك فى رسم الأرض التى خلقها.. ويتفنن فى إلقاء الألوان على الجبال وعلى داخل أعماق البحر.. والريس جادالله معلق بقدميه فوق السارى ويكاد ينسى شخصيته الجديدة.. شخصية ريس مركب الصيد.. إنه يعود إلى شخصيته العادية التى تبهر بالجمال.. ولا شىء يثير انتباهه إلا هذا الجمال.. إن الخليج فارغ لا حركة فيه كأنه خليج مهجور أو كأنه طريق لم يكتشف بعد.. لم تمر به خلال كل هذه الساعات إلا باخرة تجارية واحدة.. وأبلغ عنها.. لا يمكن أن تمر باخرة بريئة فى خليج العقبة بعد أن سحبت

مصر قوات الطوارىء وبعد أن بدأت النقرات على طبول الحرب.

ولم يبق إلا بضعة أميال بحرية ويصل إلى إيلات.

إنه يستطيع أن يرى من بعيد أنوارها .

أنوار ميناء ايلات.

وميناء العقبة الملتصق بها تلمع فيه أضواء خافتة كأنها ظل لأنوار إيلات.. وهو لا يستطيع أن يتقدم فى هذا الليل.. إن تقدمه قد يوقظ العدو ويعرضه للخطر.

وعلى اليمين.. على الشاطىء السعودى .. ميناء آخر يستطيع أن يرى أنواره .. قد لا يكون ميناء، ربما كان مجرد نقطة لخفر السواحل السعودى.. إنه موقع ليس مسجلا وليس له اسم على الخارطة التى سبق أن درسها.. لا يهم.

إن المركب الصغير يستطيع أن يرسو فى أى مكان سواء كان ميناء أو مجرد ساحل.. المهم أنه مطمئن إلى أنه يرسو على الشاطىء السعودى.

وطلب من الريس عويضة أن يتجه بالمركب إلى الأنوار السعودية.. ووقف بأقدامه الحافية بجانب عويضة مبهورا به وهو يتلوى بالمركب بين شعب المرجان الغائصة تحت الماء وسأله فى دهشة :

– هل جئت إلى هنا من قبل.

وهز الريس عويضة رأسه بالنفى.. لا.. إنها المرة الأولى التى يجتاز فيها هذا الخليج.

وقال جادالله وهو لا يزال مأخوذا بانبهاره :

– كيف تقدر مسالك هذه التلال المرجانية.

وابتسم عويضة وأشار بأصبعه إلى رأسه وهمس :

- المخيخ.

إن « مـخيخ » الريس عـويضة هـو بوصلته وهو مـقيـاس الأعماق في أى مكان من البحر.

وخرجوا من بين مسالك المـرجان وفجأة انطلق طلق نارى من فوق رؤوسـهم.

ولنش عسكرى سريع يتجه إليهم ووراءه لنش آخر.

وأمر جادالله بإيقاف المركب.. ووقف على سطحـها بقدميه الحافيتـين وبنطلونه المتآكل وقميـصه المهلهل وذقنه الطويلة وشعر رأسـه الذى أصبح يغطى قفاه.. ووقف ينتظـر القادمين وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة لا تخلو من مرارة.

إن المدفع الأول الذى وجه إليه كان مدفعا مصريا.

والمدفع الثانى.. هل هو مدفع سعودى ؟

٣

اقترب اللنش المسلح من مركب الصيد « علم الروم » وهى راسية على الشاطىء السعودى بعد أن ألقت خطافها، واقترب اللنش الثانى والتصق بالمركب من جانبها الآخر، واطمأن جادالله عندما تأكد أنها قوة سعودية، وكان قد حسب حساب كل شىء.. وأهم ما حسب حسابه هو أن يبرر دخوله إلى هذه المياه، ولهذا تعمد وهو يلقى الخطاف أن ينزع سلندر من موتور المركب حتى يقول إنه اضطر أن يلجأ إلى الشاطىء للإصلاح.

وقفز ضابط القوة إلى سطح المركب وقفز وراءه أحد الجنود يحمل مترليوز وأخذ يبحلق فى وجه جادالله ثم ينقل عينيه بين من يراه من طاقم المركب، وسأل :

– من أين ؟

وأجاب الريس جادالله وهو يبتسم مطمئنا كأنه يقدم جواز الأمان :

– من مصر.. وهذه المراكب مصرية.

وصرخ الضابط فى حدة :

– هذا ما قدرته.. رأيت على وجوهكم الإجرام.

وأشار الضابط بذراعيه فقفز إلى ظهر المركب كل رجال

القوة السعودية.. وأصبح على ظهر المركب الصغير ثمانية جنود مسلحين ويحيطهم قاربان مسلحان.. وتفرق الجنود يشهرون السلاح فى وجه كل واحد على المركب، حتى عليش الميكانيكى الذى كان من عادته أن يرقد نائما بجانب الموتور.. كان قد أوقف الموتور بعد إلقاء الخطاف وعاد ونام فضربه جندى سعودى بطرف بندقيته وانتفض مذعورا وجفونه ترتعش فوق عينيه.. كأنه يحلم.. إنه يعلم أنه ألقى الخطاف على شاطئ سعودى.. شاطىء صديق.. فما هذا السلاح الذى أيقظه.

وجمعهم الضابط وقوفا على سطح مؤخرة المركب والسلاح موجه إلى صدورهم كأنه قرر إعدامهم بإطلاق النار.. وأخذ يمر عليهم واحدا واحدا وهو يبحلق فى وجه كل منهم.. والريس جادالله يقف صامتا هادئا لا يحمل وجهه أى تعبير، والريس يبتسم ابتسامة صغيرة ساخرة كأنه يعرف مقدما كل ما سيحدث، والرقيب إبراهيم المرجوشى عامل اللاسلكى ترتعش خلجات وجهه وينظر إلى الضابط وجنوده كأنه يهم بالبكاء توسلا إليهم وعليش الميكانيكى بدأ يتثاءب كأنه أوقف موتور عقله ويريد أن يعود إلى النوم.. و.. وصرخ الضابط فى وجه جادالله :

– لماذا أرسلكم عبدالناصر إلى هنا.

وقال جادالله فى هدوء :

– لم يرسلنا أحد.. إنها مركب والدى الريس جاد الله.. وقد كنا نصطاد فى منطقة ذهب ثم عطلت الماكينة والتجأنا إلى النور الذى رأيناه نطلب مساعدتكم.

وقال الضابط ساخرا :

- مراكب الصيد لا تمر فى هذه المنطقة.. وعبدالناصر لا يصطاد إلا المصائب.. تعال معى.

وبدأ الضابط ومعه أربعة جنود يفتشون المركب قطعة قطعة.. ويقلبون كل ما عليها.. وينقرون فوق أخشابها ويمررون المجاديف تحت قاعها لعلها تخفى من تحتها شيئا.. وعلم جادالله أنهم يبحثون عن وجود أسلحة وأن التهمة الموجهة إليهم هى تهريب السلاح.. وقال للضابط فى هدوء :

- لقد جئنا بأنفسنا حتى أنواركم ولو كان لدينا ما نهربه لما ألقينا بأنفسنا أمامكم.. وقال الضابط وقد بدأت حدته تخف

- من يدرى إن لعبدالناصر حيلا وألاعيب لا تنتهى.. إنه يشتمنا فى بيوتنا عن طريق الإذاعة وربما ارسلكم إلينا أنتم أيضا لتخربوا بيوتنا.

الله يخرب بيته.

وتحمل جاد الله.. إنه يجمع كل أعصابه حتى لا يثور.. إن مجرد سماعه اسم عبدالناصر من غريب دون أن يسبق بلقب الرئيس كأنها إهانة.. كأنها اعتداء على علم مصر.. خصوصا والذى يتكلم عسكرى وهو عسكرى.

وقال وهو يبتلع ثورة أعصابه :

- صدقنى.. عبدالناصر لا دخل له بنا.. إننا نسمع به فى بيوتنا كما تسمعون عنه فى بيوتكم ومنذ أيام لم أسمع عنه لأن ليس معنا راديو.. ونحن نسعى للرزق والرزق فى يد الله لا فى يد عبدالناصر.. هل يستطيع عبدالناصر أن يأمر السمكة

بأن تضع نفسها فى الشبكة.

وضحك الضابط قائلا :

- من يدرى.. إنه رجل الأعاجيب.

وضحك معه جادالله وقال :

- والله لو كان يستطيع لبقى كل منا فى بيته وطلبنا منه أن يدعو السمك إلينا.

وعاد الضابط يضحك.. وجذبه جادالله من ذراعه قريبا من ماكينة المركب وشرح له العطل الذى أصابها.. إنها مكونة من اثنى عشر سلندر وقد نقصت واحدا.. ليس فيها الآن إلا أحد عشر سلندر وهذا هو السلندر الناقص ملقى على الأرض، وكل الأمل أن يجدوا عندهم قطعة غيار. سلندر سليم.. وقال جادالله :

- إن الشاطىء السعودى هو أكرم شاطىء عربى وقد كنا طامعين فى كرمكم.

وعاد الضابط يقول :

قل هذا الكلام لعبدالناصر لعله يؤمن مثلك بالكرم السعودى.

ووقف الضابط أمام آلة اللاسلكى وتساءل بلا حماس :

- ما هذا.. ليس من عادة مراكب الصيد أن تحمل مثل هذه الآلات.

وقال جادالله بلا مبالاة :

- إنها آلة لاسلكى وضعتها الشركة التى نتعامل معها حتى ترسل إلينا مطالبها.. شركة مصايد الأسماك.

وقال الضابط ساخرا :

- مصايد الأسماك أم مصايد الحكام.

وانتهى تفتيش المركب.. ليس فيه ولا قطعة سلاح.. حتى ولا مسدس صغير يمكن أن يحمله الريس ليدافع به عن نفسه.. وكانت هذه هى التعليمات.. لا سلاح على المركب حتى يتوفر لها مظاهر التخفى إذا حدث ووقعت فى يد العدو.. واستراح الضابط السعودى ثم دعا الريس جادالله ورجاله إلى النزول معه إلى الأرض حتى يأمنهم بينما يبحث لهم عن قطعة الغيار التى يحتاجون إليها.. وفى لمحات سريعة قدر جادالله أنه فى قرية صغيرة أو مضرب خيام أقرب إلى قرية رأس محمد الواقعة على الجانب المصرى لسيناء، وربما كانت مركزا للحدود يتبع ميناء الحمضية السعودى الذى يقع على خليج العقبة.. وفى لمحات أخرى استطاع أن يقدر القوة البحرية الصغيرة والقوة الأرضية التى التقطتها عيناه.. ثم التفوا كلهم حول موقد يشوى عليه خروف تحضيرا لوليمة العشاء الذى يدعوهم إليه قائد المركز.. وجادالله ساهم يعيد قياس تخطيط المهمة المكلف بها إنه الآن على بعد ساعتين فقط من ميناء إيلات وميناء العقبة.. إنها مسافة يمكن لأى زورق صواريخ أن يقطعها فى دقائق.. أى ليس بين الساحل السعودى والساحل الإسرائيلى سوى دقائق ورغم هذا فإن السعودية لا تعتبر نفسها دولة مواجهة.. ربما لأن ميناء العقبة تفصل بين حدود إسرائيل وحدود السعودية.. ولكن ميناء العقبة لا تعتبر فاصلا إن عرضها كحاجز لا يتجاوز عشرة كيلومترات حى لا تحمل مسئولية الحرب المباشرة.. إنهم اذكياء.. ليس عبدالناصر هو أذكى الحكام العرب.

وأفاق جادالله والضابط السعودى يسأله فى صوت مرح :

- كان أشد ما أثار شكوكى أنكم استطعتم أن تجتازوا شعب المرجان وأنتم فى طريقكم إلينا.. وقد بحثت عند تفتيشكم عن خارطة بحرية يمكن أن تكونوا قد اعتمدتم عليها ولكنى لم أجد شيئا إلا خارطة قديمة ليس فيها ولا مجرد إشارة إلى الموقع.. كيف استطعتم.. هل معكم أحد سبق أن أبحر إلى هنا.

وقال جادالله وهو يفتعل المرح :

- معنا الريس عويضة.. لقد ولد فى البحر الأحمر من أبناء الدرافيل وهو يؤمن الطريق ويحرك دوما المركب كأنه يحرك ذيل سمكة.. كأنه يرى تحت الماء.. إنه لم يسبق له أن أبحر إلى هنا ورغم ذلك لم يشعر أنه يمر فى طريق غريب عليه.

وابتسم الريس عويضه وأشار إلى رأسه.

المخيخ.

وقال الضابط وهو يتحسر :

- والله يا مصريين أنتم عباقرة فى كل شىء لولا عبدالناصر.

وكتم جادالله أعصابه كأنه يخنقها بيديه وهو يسمع إهانة توجه إلى علم مصر، ومد أصابعه الخمسة والتقط حفنة من الأرز قذف بها فى فمه.. وقد عاد يرسم فى خياله طريقه.. الأفضل أن يتحرك من هنا فى الساعة الخامسة صباحا حتى يصل أمام ميناء العقبة فى مواجهة إيلات بعد اجتياز الفجر وطلوع الشمس.. ويرفع رأسه ويشترك مع مضيفه فى حكاية أو فى سؤال، ويلوى شفتيه امتعاضا وهو يرقب نفاق إبراهيم

المرجوشى لكل من حوله من الجنود السعوديين وكأنه يشحذ منهم رضاءهم عنه ويضمن لنفسه السلامة من بين أيديهم

واعتذر ضابط المركز.. لم يجدوا قطعة الغيار التى تصلح للمركب.. وقد يجدونها فى ميناء العقبة.

أوصاهم القائد أن يبحروا إلى العقبة، وكأنهم يبحرون تنفيذا لطلبه لا تنفيذا للخطة.

والساعة الخامسة.. والمركب تتحرك.. وعويضة يترقص بالمركب بين شعب المرجان إلى أن خرج بها إلى بحر الأمان.. وجادالله لا يتعلق بقدميه الحافيتين فوق السارى، ولكنه يتحرك فوق السطح مع الصيادين ويشغل نفسه بتحريك الشباك والتظاهر بالعمل كمجرد تغطية لنفسه وهو يقترب من أرض العدو.

ورآها بعينيه المجردتين.

رأى إيلات.

إنا المرة الأولى التى يرى فيها العدو فوق أرضه.

والعقبة.

إن النظرة الواحدة يمكن أن تجمع بين العقبة وإيلات.. كأنهما مدينة واحدة.. الفاصل بينهما فراغ لا يتجاوز عدة أمتار.. كيلومتر واحد.. وليس بينهما حتى علامات واضحة مميزة للحدود... إن بين ألمانيا الشرقية والمانيا الغربية حائطا.. ولكن ليس هناك حائط بين العقبة وإيلات.. ورغم ذلك فالفارق بينهما كبير..

إيلات تبدو مدينة تنحدر فوق تل من القمة حتى ساحل البحر وكأنها لوحة فوتوغرافية معروضة أمامك تستطيع أن

تراها بكل شوارعها وكل بيوتها.
والعقبة تبدو كأنها ضاحية سياحية لهذه المدينة.
وتوقف جادالله عن إطلاق عينيه فوق أرض العدو على صوت محركات لنش حرس السواحل الأردنى يقترب منه.
وقفز الضابط على ظهر المركب وبدأ السؤال :
- من أين ؟
- من مصر.
وابتسم الضابط ابتسامة كبيرة وقال بصوت فرح :
- أهلا وسهلا.. لماذ لا ترفعون العلم.
وقال جادالله وهو متعجب من كل هذا الترحيب الذى استقبل به :
- ليس لدينا علم حتى نرفعه.. إنه مركب صغير ولم تتعود رفع الأعلام.
وطاف الضابط بعينيه فوق وجوه رجال المركب واتسعت ابتسامته كأنه تأكد أنهم كلهم مصريون، ثم خطا فى جوانبها كأنه يقوم بعملية تفتيش وتوقف برهة سريعة أمام آلة اللاسلكى دون أن يعلق بشىء.. ثم ترك المركب لأحد المرشدين ليصل بها إلى مكانها من الميناء.
وكان المرشد عونى الأيوبى أكثر فرحة وترحيبا بالمركب المصرى رغم أنه لا شىء سوى مركب صيد صغير لا يزيد طوله على عشرة أمتار.. وانطلق فى حديث لا يتوقف مع الريس جادالله ومع الريس عويضة الذى يقف بجانبه على الدومان يقود المركب.. ومن خلال الحديث فهم جادالله سر كل هذه الفرحة وهذا الترحيب.

لقد انضمت الأردن إلى اتفاقية الدفاع المشترك مع مصر وسوريا.

أصبحت مع مصر فى موقف واحد.

ولم يكن على المركب راديو ليسمع هذه الأنباء ولكن لماذا لم تبلغه القيادة بهذا التطور وهى تعلم أنه يدخل ميناء العقبة الأردنى.. ربما كان قد فكر فى خطة أخرى يدخل بها.. لا يهم.. إنه الآن مسئول عن نفسه بعيدا عن القيادة.

وأصر جادالله على أن يرسو بمركبه بين مجموعة من مراكب الصيد والمراكب التجارية الصغيرة حتى يتستر بينها ولا يثير اهتمام إسرائيل.. وكان يطلب من المرشد عونى كأنه يلقى أمرا وعونى يتلقى الأمر فى فرحة.

وكان المفروض بمجرد أن ترسو المركب وطبقا للقوانين البحرية فى الحالات الاستثنائية أن تقفل كابينة اللاسلكى ويختم بابها بالشمع الأحمر ولا تفتح إلا بعد أن تترك المركب الميناء حتى يكون كل اتصالاتها بالخارج عن طريق لاسلكى الدولة نفسها.. ولكن لا أحد اهتم بلاسلكى المركب « علم الروم ».. لا الضابط ولا المرشد.. كأنها مركب تابع للأسطول الأردنى.. وربما كان الضابط والمرشد قد فهما سر هذا المركب الصغير دون أن يفصحا عن شىء ودون أن يكون جادالله قد كشف لهما عن شىء.

وبمجرد أن ألقى الخطاف اتخذ جادالله مكانا فوق المركب يستطيع منه أن يرى إيلات كلها دون حاجة إلى منظار معظم.. وأخذ من اللحظة الأولى يسجل مراكز الدفاع حول الميناء ويسجل كل ما يلتقطه من تحركات برية وبحرية وجوية .

لا يمكن أن تكون كل هذه التحركات مجرد تحركات عادية روتينية.. إن هبوط وصعود الطائرات لا يتوقف.. وعدد السيارات واللوارى التى تدخل وتخرج أكبر من أن تحتاج إليه حالة عادية.. والقطع البحرية الصغيرة التابعة للأسطول الإسرائيلى لا تتحرك ولكن كل شىء فوقها يتحرك.. إن درجة الاستعداد التى أعلنتها إسرائيل فى إيلات أعلى من درجة الاستعداد التى أعلنت فى الإسكندرية أو فى باقى الموانىء المصرية.

وهو يرسل كل ما يلتقطه إلى القيادة بالشفرة.. وإبراهيم المرجوشى عامل اللاسلكى لا يترك مكانه.

لقد أمر جادالله كل طاقم المركب بعدم النزول إلى البحر.

وفى الليل التف جادالله ببطانية فوق قميصه المهلهل وبنطلونه المتآكل وذقنه الطويلة وشعر رأسه الذى طال حتى أصبح يغطى قفاه.. وبقى فى مكانه وكل عينيه مسلطتان على ميناء إيلات.. إن الحركة لا تهدأ حتى بالليل بل إن تحركات سيارات النقل تزداد.. نقل القوات ونقل الأسلحة والمتطلبات.. ويغلبه التعب ويحاول أن يوزع النوباتشية بين عينيه. عين تنام وعين صاحية.. ويقرر أن يستعين بالريس عويضة فى المراقبة ليغفو قليلا ويرتاح.. ولكن هذه ليست مهمة عويضة ولن يفهم ما يراه ما يفهمه هو.. وهو يستطيع أن يقاوم ويستطيع أن يتحمل.

وكان خلال كل ذلك يدير عينيه إلى ميناء العقبة.. لا شىء.. لا حركة إلا الحركة العادية لأى ميناء سياحى.. ليس فيه إلا رصيف واحد رئيسى فى حين أن إيلات تضم أكثر من ثلاثة

أرصفة.. كل ما فيها حركة تجارية محدودة، وحركة عدد من مراكب الصيد.. ثم هناك فى الناحية الأخرى من الشاطىء بعض الأفراد يلعبون لعبة الزحف فوق الماء ويعلقون أنفسهم بلنش يجرهم على الماء فوق زحافات.. هل هذا وقت اللعب.. ربما لهذا لا تفكر إسرائيل فى الاستيلاء على العقبة.. أو ربما تعمد الأردن أن تجعل من العقبة منطقة معزولة السلاح حتى لا تستولى عليها إسرائيل.. إننا نلقى السلاح أمام العدو.

وفى صباح اليوم التالى سمح لاثنين فقط من رجاله بالنزول إلى المدينة لشراء تموين المركب من الأرز والبطاطس الذى يستكملون به مع السمك أكلة المدفونة.. ثم فوجىء عند الظهر بضابط خفر السواحل يأتى ومعه حمل كبير من مختلف الأطعمة وكمية كبيرة من السجائر.. سجائر ريم.. يا جماعة لا تفضحونا أمام العدو.. إن ترحيبكم بنا قد يكشف عن حقيقة مهمتنا.. قال هذا الكلام فى سره ولم يقله للضابط فهو لا يريد أن يقول للضابط كل شىء.. والضابط مستمر فى ترحيبه.. إنه أقل ما يجب نحو أول مركب مصرى يدخل العقبة منذ زمن طويل لو كان مجرد مركب صيد.

وجادالله يشكره بلهجة الصيادين التى كان يحاول أن يضعها على لسانه كلما تكلم مع غريب.. ورجاله تكاد الفرحة تقفز وتطير بهم.. هذا خير كتير.. نعمة.. وابراهيم المرجوشى يحاول أن يقدم نفسه للضابط متملقا.. والريس عويضة يتقبل الهدية فى فرحة شامخة كأنه رئيس قبيلة تتقرب له القبائل الأخرى بالهدايا.. ومد جاد الله يده إلى علبة سجائر.. إنه يضعف دائما أمام السجائر وقد حمل معه تموينا من سجائر

كليوباترا يكاد ينتهى، لعل سجائر ريم تعوضه عنها.. واستراح وهو يدخن ريم وعيناه تطلان على ميناء إيلات.

وقبل الغروب جاء عونى الأيوبى إلى المركب وبصحبته فتاة.

إنه تزوج من مصرية وهذه شقيقة زوجته.. وقدمها له.. زهرة.. وجادالله يعود ويحادث نفسه.. إنهم سيفضحوننا.. يا جماعة نحن لا أكثر من مركب صيد.. أعملوا معروف.. وعونى يقول إن هذه زهرة لم تستطع أن تقاوم فرحتها عندما سمعت أن قطعة من مصر قد وصلت إلى العقبة وأصرت على أن تأتى لتلتقى بإخوتها المصريين.. وجادالله مشدود إليها بعينيه.. إنها حلوة.. ملفوفة.. شعرها الأسود موج هادئ فوق كتفها.. وعيناها تنطقان بكل سذاجة مصر وطيبة مصر وإغراء مصر.. ووجد نفسه وهو بين عينيها يتذكر زيزى ويتذكر حقه كبحار له فتاة فى كل ميناء.. إن زيزى ميناء الاسكندرية وزهرة ميناء العقبة ومن حقه أن يرسو عليها.. وزهرة تقف أمامه وتتطلع فيه هو وحده دون بقية من على المركب رغم أن كلهم مصريون، كأنها تستطيع أن تراه من خلف ذقنه الطويل وقميصه المهلهل وبنطلونه المتآكل وقدميه الحافيتين.. كأنها ترى فيه الملازم عبدالحميد مهران لا الريس محمود جاد الله.. واقترب المرجوشى منها ولسانه يلعق شفتيه وبقية الرجال اخذوا نظرة ثم انصرفوا عنها والريس عويضة تعلو شفتيه ابتسامة حنونة هادئة كأنه يلتقى بابنته.. لم يحمل سطح هذه المركب قدمى أنثى إلا قدمى ابنته عندما كانت أحيانا تحمل إليه الطعام وهو يرسو فى ميناء السويس.. وزهرة تسأل

أسئلة لا تنتهى عن مصر والمرجوشى يسبق بالإجابة، وهى تستمع إليه وعيناها معلقتان بوجه جادالله وهو يبتسم ابتسامته الباردة حينا ويقول كلمة أو كلمتين ثم يعود ويدير كل وجهه إلى أرض العدو كأنه يهرب من زهرة ويهرب من إحساسه بأنه فى حاجة إلى امرأة ميناء.

ودعا المرشد عونى إلى العشاء فى بيته.. واعتذر جاد الله.. قال إنه مضطر أن يبقى مع عليش حتى ينتهى من إصلاح الماكينة.. وابتسم عونى ابتسامة خبيثة كأنه يفهم كل شيء وأخذ زهرة ونزل من المركب وهى تلتفت خلفها فى كل خطوة كأنها تحاول أن تشده وراءها، وتقف فوق الأرض وترفع رأسها إليه كأنها تقبله بابتسامة ثم تخفض رأسها فى خجل وتبتعد سريعا فى خطوات تتعثر فى خجلها.

والتف جاد الله بالبطانية وجلس على سطح المركب فى مواجهة إيلات يرقب التحركات فوقها وسؤال يتردد فى عقله.. ماذا تعرف السلطات الأردنية عن حقيقة مهمته.. وسواء كانت تعرف أو لا تعرف فهل بعد أن انضمت إلى القيادة المشتركة يصبح من واجبه أن يصارحها بهذه المهمة حتى تعاونه على أن يجمع مزيدا من المعلومات.. لا.. إن القيادة لم تبلغه شيئا.. وهو مرتبط بالاحتفاظ بسرية مهمته، ثم إنه لا يعرف مدى ارتباط الأردن بالقيادة، وكثيرا ما كانت تشكيلات الوحدة سواء كانت سياسية أو عسكرية مجرد مظاهر كاذبة.. ورغم ذلك فهو لا شك فى حاجة إلى الاتصال بأهل البلد حتى يستنزف منهم أسرارا لا يمكن أن يلتقطها بعينيه المجردتين من فوق المركب.. لعل من المصلحة أن يتقرب أكثر من عونى

الأيوبى.. لا شك أنه يعرف الكثير.. وابتسم كأنه يسخر من نفسه.. هل يريد التقرب من عونى أم من زهرة.

وبقى طول الليل ملتفا بالبطانية وقد قسم نوبتشية النوم بين عينيه. عين تنام.. وعين لا تنام.. وأفكاره تختلط بأحلامه.. لا يدرى هل يفكر أم هل يحلم.. ثم تقفز كل أعصابه، صاحية كلما لمح ضوءا جديدا ينطلق من فوق إيلات.

وفى الصباح حدثت مفاجأة.

صعد ضابط خفر السواحل إلى المركب وقال للريس جادالله ورجاله إنه جاء ليبلغهم رسالة رسمية.. إن جلالة الملك قد أخذ علما بوصولهم وجلالته يرحب بمركب الصيد المصرى وبرجاله ويعتبرهم ضيوفا عليه فى العقبة.. وقال الضابط تأكيدا للترحيب.. كل البلد تحت أمركم.. اعتبروا أنفسكم مدعوين فى كل مكان من البلد.

وانطلقت الفرحة فوق كل الوجوه حتى كادوا يهللون هتافا بحياة الملك وجادالله يقف مبهوتا.

والله عال.. لم يبق إلا أن يرسلوا موسيقى الجيش لتعزف لهم السلام الملكى الأردنى ويطالبونه بأن يعود إلى حالته العسكرية وقف تعظيم سلام.. يا جماعة لا تفضحونا.. اعملوا معروف.. إن اسرائيل ترانا كما نراها.. من يدرى.. ربما كان الملك على علم بمهمة هذا المركب.. لا يمكن أن يرسل تحية رسمية لمركب صيد عادية.. بل من يدرى.. ربما كانت إسرائيل تعلم أيضا وتراعى تخطيطا معينا فلا تحاول أن تحتك به.

وسكت جاد الله.. إنه يحاول دائما أن يخفى شخصيته ولا يتصدر للمواقف وترك الريس عويضة يرد على الضابط..

ربنا يخلى لنا جلالة الملك.. والمرجوشي يتطوع بكلام كثير.. إلى أن غادر الضابط المركب بعد أن ترك وراءه حملا آخر من الهدايا.. أطعمة وشاى وبن وسكر وسجائر.. ومد جادالله يده وسحب خرطوشة أخرى من سجائر ريم.

والرجال يريدون أن ينزلوا إلى المدينة.. ولم يمنعهم جاد الله.. يجب أن يريحهم ويرفه عنهم حتى يحتفظ بروحهم العالية.. ولكنه قسم الرجال الستة إلى ثلاث دوريات.. اثنين اثنين.. لا تخرج دورية إلا إذا عادت من سبقتها.. وعلى كل دورية ألا تغيب أكثر من ساعتين.. وآخر دورية تعود فى الساعة السادسة.. ممنوع السهر فى المدينة.. وممنوع الخمر.. وبقى هو فى المركب، عيناه مسلطتان على إيلات.. يسجل ويرسل بالشفرة.. ويستقبل كل اثنين عائدين من المدينة بسؤالهم عن كل شىء.. كل ما رأوه وكل ما سمعوه.. ودوافع قوية تلح عليه بأن يحاول هو نفسه أن يجمع المعلومات التى لا يراها بعينيه.

وساعة العصر لمح زهرة تتمشى أمام المركب وفى خطواتها تردد كأنها لا تدرى كيف تصل إليه.. ولوح لها بيده مع ابتسامة واسعة لم يتعودها وقفز إليها وأخذته وهى تتعثر فى فرحتها.. وقال وهو يحاول أن يرسم براءته بصوته :

– أخشى أن يكون زوج أختك قد أخذ على خاطره منى لأنى اعتذرت عن دعوته أمس.

وقالت زهرة فى حماس :

– إنه سيدعوك اليوم أيضا.. هل تقبل.

وقال جادالله وهو يحتويها بعينيه :

- يشرفنى.. وقد أوحشتنى مصر.. أحس كأنى سأتناول العشاء فى مصر.

وجرت زهرة من أمامه كأنها على عجل لتعد له العشاء.

وجاء عونى الأيوبى مع الغروب وقال :

طمأنتنا زهرة إلى أنك ستقبل الدعوة هذه المرة.

وذهب معه إلى البيت بعد أن اتفق مع الريس عويضة على أن يحل محله فى مراقبة التحركات فوق إيلات ويحفظها فى ذاكرته إلى أن يعود.. لم يتفق مع المرجوشى.. إنه لا يثق فيه.

وقدمه عونى إلى زوجته المصرية.. وكل ما يقدمونه إليه مصرى حتى الملوخية بالأرانب.. خيل إليه أنه يذوق الأرانب لأول مرة من طول ما غابت عنه.. لقد كان يعيش فى دنيا ليس فيها إلا سمك.. وزهرة تقوم على خدمته وهى تترنح فى حياء كأنها فى انتظار أن يطلب يدها من زوج شقيقتها.. وبدأ يتحدث مع عونى عن احتمالات الحرب وما يذاع عن مصر وعن إسرائيل.. وعونى لا يعتقد أنه ستكون هناك حرب.. إنها مجرد مظاهرات سياسية.. وكل هذه الحركة فى إيلات ليست أكثر من المعتاد.. إنهم فى كل فترة يقومون بتحركات كأنها مناورات تدريبية.. صحيح أنه لم تصل إلى إيلات بواخر أجنبية منذ أسابيع.. وصلت مركب منذ أسبوع.. وإيلات لا تستقبل عادة بواخر كثيرة.. إنها ميناء عسكرى أكثر منها ميناء تجاريا.. وجادالله يسأل.. مراكز السلطة فيها.. مراكز الثكنات.. القيادة البحرية والقيادة البرية والقيادة الجوية.. والشوارع.. والكباريهات والمقاهى.. وعونى يجيبه فى هدوء دون أن يبدو عليه الشك فى مهمته رغم أن كلها تساؤلات لا تدخل فى

اختصاصات ولا اهتمامات صياد.. مجرد صياد.. وقال جادالله كأنه يحاول أن ينفى الشبهة عنه :

- إنها المرة الأولى التى أصل فيها إلى العقبة مع الريس عويضة ولذلك أسألك عن إيلات من كثرة ما سمعت عنها.. ثم لأنى رأيتها أكبر مما تصورت خصوصا بالنسبة للعقبة.

وقال عونى ضاحكا :

- إيلات ميناء عمل.. وهنا ميناء للنزهة والتزحلق على الماء.. وغادر جادالله البيت وزهرة تنظر إليه بعينيه متساءلتين كأنها تسأله متى ؟

وكان سعيدا بالمعلومات التى جمعها من عونى رغم أن معظمها قد يكون مسجلا فى أرشيف المخابرات المصرية.. وهو سعيد لأنه وصل إلى هذه المعلومات بنفسه لا عن طريق المخابرات.. وجلس على سطح المركب ملتفا بالبطانية يسجل كل ما سمعه بعد أن راجع الريس عويضة فيما التقطه من تحركات فوق إيلات.

كان الغد هو اليوم الرابع للمركب « علم الروم » فى ميناء العقبة.. إنه اليوم الأخير.. وبعده يجب أن يبحر عائدا إلى القاعدة.. وجادالله يراجع المعلومات التى جمعها ورغم كل ما جمعه فهو مقتنع بأن لا يزال هناك معلومات ناقصة.

وفى الصباح جاءت زهرة تحمل صينية بقلاوة، وقالت ضاحكة لجاد الله :

- هذه ليست لك.. فقد أخذت نصيبك منها أمس.. إنها لباقى إخوتى.

وقال جادالله هامسا :

- هل أستطيع أن أراك اليوم ؟
وهزت رأسها فى حياء موافقة..
وعاد جادالله يهمس :
- الساعة الثالثة.. عند نهاية الرصيف.
وتركت زهرة صينية البقلاوة بين أيدى إخوتها وجرت فرحة.
ولاقاها فى الساعة الثالثة بعد الظهر.. والحركة راكدة على الرصيف وبدأت تخف على أرصفة إيلات.. وصحبها إلى قارب صغير يؤجر للسواحل وأخذ يجدف بها فى اتجاه الميناء الآخر.. ميناء إيلات.. ولم يكن هذا ما يمكن أن يعتبر تسللا إلى أرض الأعداء فالقوارب الصغيرة تروح وتجىء فى المياه التى تجمع بين العقبة وإيلات.. وبدأ يحادثها كأنهما فى رحلة حب.. إنها تقيم مع شقيقتها منذ ثلاثة أشهر ولا تدرى متى تعود إلى مصر.. وهى لا تريد أن تتم تعليمها إنها توقفت عند الشهادة الابتدائية.. وقال مبتسما :
- إنى أومن بأن مستقبل أى بنت هو الزواج.. الزواج ولا شىء آخر.
وقالت فى خفر :
- لن أتزوج إلا فى مصر.
وقال ضاحكا :
- على ألا يكون بحارا حتى لو كان من مصر.
وقالت فى جزع كأنه يطردها بعيدا عنه :
- لماذا.. ماذا ينقص البحار.
وقال وهو لا يزال يضحك :

- إن البحار بالنسبة لزوجته أشبه بالمخدر.. يخدرها بوجوده ثم يتركها مخدرة ويغيب عنها شهورا فى البحر ويترك فى كل ميناء فتاة مخدرة.

وقالت بشفتين غاضبتين :

- إن البحار قد يطوف بالموانى ولكن له دائما ميناء يعود إليه.. لا يطوف به ولكنه يعيش فيه.. أختى متزوجة من بحار.. إلا إذا كنت أنت من هذا النوع.

وقال فى رقة مفتعلة :

-أبدا.. ولكننى فقط أردت أن أعرف رأيك فى زواج بحار.

قالت مبتسمة كأنها تخدره من أن يكشف عن نفسه :

- مفروض إنك صياد.

وقال وهو يرمى ناظريه إلى الشاطىء.. إنه يقترب من شاطىء إيلات :

- إنى أصطاد على الأرض.

وهو يقترب أكثر من أرض إيلات.. وكان القارب قد وصل إلى زاوية صخرية يختبى فى ظلها وترك المجدافين وانتقل بجانبها وهو يقول :

- إنى أدعوك إلى شباكى.

ثم انحنى على شفتيها يقبلها ومن خلال القبلة يرفع عينيه إلى الشاطى.. لا أحد.. الأرصفة البعيدة خالية.. وترك شفتيها وقال ضاحكا :

- قبلتك ذوبتنى.. انتظرينى هنا لا تحركى القارب.. وقام وقذف نفسه فجأة فى الماء وهو بقميصه المهلهل وبنطلونه المكرمش وقدميه الحافيتين وذقنه الطويل وشعر رأسه الذى

يغطى قفاه.

وقد سبق لـه أن تدرب في فرقة الضفادع البشرية كبقية الغواصات.. وهو يغوص تحت الماء رغم أنه لا يحمل معدات الضفدع البشر.. وهو يحاول أن يرى من بعيد تحصينات الميناء من تحت الماء.. إنه يرى مجموعة أسلاك ممتدة فى جوانب كثيرة من قاع الميناء.. وهو يعلم أن مثل هذه الأسلاك توضع متصلة بدائرة كهربائية تطلق إنذارا فى مركز القيادة إذا مسها أى جسم.. ورأى مجموعة من الألغام معلقة فى أماكن أخرى تحت الماء .. الألغام التى تنطلق فى موجات انفجارية تطيح بكل ما فوقها وما تحتها وما حولها ورأى.. ورأى.. إن قدرته على البقاء تحت الماء تصل إلى أربع دقائق.. كفى.. وطفا فى هدوء فوق الماء إلى أن وصل إلى القارب وارتفع إليه وألقى بنفسه بين ساقى زهرة وهو يقول ضاحكا :

– آسف.. إن كل صياد ينقلب فى فرحته إلى سمكة.. فرحتى بك :

وهى تنظر إليه فى دهشة لا تستطيع أن تعبر عنها ولو بكلمة.. إنه غريب.. لعله مجنون.. أو لعله خطير.

وعادا إلى الشاطىء وافترقا على غير موعد كأنهما ارتبطا إلى حد لم يعودا فى حاجة إلى مواعيد لقاء.. واكتفى بأن قال :

– غدا.

وقالت :

غدا.

ولم يكن لهما أبدا غد.

٣

كانت التعليمـات تفرض على الريس جادالله ألا يبقى فى مـيناء العقبـة أكثر من أربعـة أيام يعود بعدها إلى مقر القيادة.. وقـد كان يعتقد أنه يجب أن يبـقى أكثـر وإلى أن تنتـهى هذه الحـالة التى تهدد بـالحرب، فالتـحركـات فى إيلات لا تتوقف بريـا وجويا وبحـريـا.. إنه لم يكن يعـتـقـد أن تتـسع لكل هذا الـنشـاط والاستعـداد العسكرى، وكان يجب أن يبقى كمـركز استطلاع لمـصر خـصوصـا وإنه لم يجد فـى ميناء العـقبـة أى مركـز استطلاع تابع للأردن.. إن العقبـة مستسلمة استسـلاما كاملا لإيلات حتى كمجـرد مظهر عسكرى.. ورغم ذلك كان يجب أن يخضع للأوامر ويعود إلى مقر القيادة فى السويس.

وقـرر أن يتسـلل خارجـا من المـيناء دون أن يبلغ حـرس الحدود الأردنى ولا صـديقه المـرشد عونى الأيـوبى ولا حتى زهرة.. كـان يخـشى لو أبلغهـم أن يبالغـوا فى مظاهر وداعـه فيلفتوا نظر اليهود إليه فيتتبعوه خارج الميناء وينفردوا به فى البحر.. تـسلل فى آخر الليل قبل الفجـر وهو يلقى آخر نظراته على الأضـواء التى لا تهدأ حـركتـهـا فوق مـيناء إيلات وعلى الأضواء المطفأة فوق ميناء الـعقبة.. وترك « الدومان » للريس عويضة مـعتمدا عليـه اعتمادا كـاملا فى تأمين قيـادة المركب

كعادته، واستلقى فوق السطح وكل ما يملأ فكره وإحساسه هى صورة زهرة.. فتاة الميناء.. إنها ليست مجرد فتاة ميناء.. لم يحملها إلى الميناء إلا زيارة أختها زوجة المرشد عونى.. إنها فتاة فى انتظار الزوج والبيت.. ورغم ذلك فقد كانت الضحية الوحيدة فى كل العملية السرية التى قام بها.. لا ينكر أنه غرر بها.. حرك فى خيالها صورة لمستقبلها معه.. ثم أنه قبلها وهما فى القارب بجوار أرصفة إيلات قبلة طويلة.. لا يدرى كيف أحست بقبلته فهو شخصيا لم يحس بها.. كان يقبلها كمجرد مظهر خادع يخدع به أى يهودى يمكن أن يراه وهو يتسلل قريبا من الأرصفة.. كأنها رحلة غزل وليست رحلة تجسس.. ولكنه لم يخدع اليهودى وحده خدع معه زهرة فهى لم تكن تعرف أنها فى رحلة تجسس.. كانت تظن أنها فى رحلة غزل.. لا يهم.. إن المرأة لها دائما دور رئيسى هام فى كل الحروب حتى لو كان هذا الدور.. وكل تاريخ اليهود يعتمد على نساء بعن أنفسهن لرجال الأعداء لإنقاذ شعبهن.. كل امرأة تنام مع عدو تعتبر فى نظر التاريخ اليهودى قديسة كدليلة التى استولت على شمشون.. وزهرة لم تعط نفسها لعدو وإنما فقط أعطت قبلة لجندى من بلدها وإن لم تكن تعرف أنه جندى ولا أنه فى مهمة عسكرية.. وغم ذلك فقد كان يجب عليه على الأقل أن يودعها قبل أن يهجرها بكلمة حلوة.. بوعد.. ولكنه ودعها بكذبة عندما اتفق معها على لقاء الغد وكان يعلم أن لا غد لهما.. الله يسامحه.

وكان قد أرسل إشارة إلى القيادة بتحركه خارج ميناء العقبة.. وفى نفس اليوم والمركب السلحفاة تتحرك ببطء وسط مياه خليج العقبة تلقى من القيادة إشارة بأن يتجه

مباشرة إلى ميناء الغردقة.. وكان المفروض أن يتجه إلى السويس.. لماذا الغردقة.. لا يهم.. تكفى فرحته بأن القيادة قد اتصلت به.. إنها لم تتصل به أبدا منذ بدأ إلا بكلمة « علم » أى إن رسالته وصلت.. وكانت هذه الكلمة تطمئنه إلى أن الشفرة لم تتغير كما حدث من قبل وتغيرت دون أن يبلغ بتغييرها.

وأبلغ الريس عويضة بالتعليمات الجديدة.. وكان يصعد ويعلق نفسه بقدميه الحافيتين فوق السارى يستطلع ما حوله.. لا شيء.. الخليج كله هادئ هدوءا غريبا.. لا مركب.. ولا طائرة.. ولا حتى قارب صيد.. ربما كانت الأزمة قد انتهت وعاد الهدوء.. ولكن هذا الهدوء يمكن أن يكون مريبا .. أكثر من هدوء .. عادى .. إنه لا يدرى شيئا.. والمركب ليس عليه جهاز راديو.. وهو يقضى وقته فى الاستطلاع حينا، وفى استعادة المعلومات التى جمعها وتسجيلها فى أوراقه حينا.. وأحيانا يصطاد السمك مع بقية الطاقم بخيوط اللنسا التى تصطاد سمكة بسمكة.. وأحيانا يجلس مع عويضة ليسمع منه حكايات الصيادين ويتعلم منه فن الصيد ولهجة الصير.. وأحيانا يجلس مع إبراهيم المرجوشى ويلاعبه الكوتشينة كأنه يتقى شره.

ورحلت المركب « علم الروم » إلى الغردقة.

وصلت عند الظهر ٥ يونيو.

وفوجيء جادالله بدرجة الاستعداد فى الغردقة قد ارتفعت إلى الدرجة القصوى وعلم فى كلمات عابرة مع من التقى بهم وهو فى طريقه إلى القيادة أنه حدث هجوم إسرائيلى عند فجر اليوم.. الحرب بدأت.. إنه لم يبلغ بأن الحرب بدأت رغم أنه كان لا يزال فى البحر.. لماذا لم يبلغوه.. ربما كان قد تعرض لشيء

لم يحسب حسابه.. وهو يحس هنا فى الغردقة كأنه لا شىء قد حدث.. تحركات كثيرة لا يفهمها.. واسترخاء فى مراكز أخرى حول أجهزة الراديو المركزة على محطة صوت العرب.. ربما كان صوت العرب هو الذى شغلهم عن أن يستقبله أحد وهو يدخل بالمركب إلى الميناء رغم أنه لم يكن يرقع علما ولا يمكن أن يكون حرس الحدود على علم بمهمته وبموعد وصوله.. دخل كأنه يدخل ميناء حرا وليس أمامه إلا مدفع صغير ومن ورائه عسكرى واحد.. وهو يتلفت حواليه فى حيرة إلى أن وصل إلى مكاتب القيادة.. إنهم هنا أكثر تعبيرا عن الحرب.. الجدية تفرض نفسها على الجميع والراديو فوق المكتب مسجلا على محطة صوت العرب أيضا.. واتخذ وقفة عسكرية فوق قدميه الحافيتين وقدم نفسه :

– الملازم عبدالحميد مهران.

ولم يكن مطلوبا منه شىء ساعتها.. عليه أن يبقى فى حالة الاستعداد القصوى إلى أن يدعى إلى القيادة.. ووجد نفسه يسرع عائدا إلى المركب وهو الآخر يبحث عن محطة صوت العرب.. إن الأخبار مفرحة.. فشل الهجوم الإسرائيلى.. الطائرات الإسرائيلية تتساقط كأوراق الخريف.. ومن حق رجاله الآن أن يرتاحوا على الأرض.. أن يوفر لهم أكلة دسمة وليلة ضاحكة ونومة هادئة.. ولكنه لا يجد من يلجأ إليه.. كل الغردقة تستمع إلى محطة صوت العرب.. وهو نفسه يريد أن يبدل هذا القميص المهلهل وهذا البنطلون المتآكل.. لقد أصبحا قطعا من الخرق البالية القذرة.. ولكنه لن يجد فى الكانتين قميصا جديدا.. وليس معه ولا مليم حتى يشترى من أحد دكاكين الغردقة كان مفروضا ألا يحمل نقودا خلال تأديته

مهمتــه.. والتقى صدفة بصديقه وزميـله الملازم بحرى ياقوت العباسى.. إنه هو الآخر كان مكلفا بمهمــة استطلاعية كمهمته.. ولكنه ساخط على كل شىء.. إنه اسكندرانى يعــبر عن سخطه ضاحكا.. وقاطعه عبدالحميد قائلا :

– هل معك نقود.

وأخرج ياقوت من جيبه ستة جنيهات وبضعة قروش وهو يقول ضاحكا :

– استولينا عليها أمس من العدو.

وقال عبدالحميد :

– أقرضنى فى عرضك.

واقتسم ياقوت المبلغ مع عبـدالحميد.. أعطاه ثلاثة جنيهات جرى بها عبـدالحميد إلى دكان اشترى منه قـميصا وبنطلونا.. وأحس وهو يلبسـهما كأنه يرقد على فـراش من ريش النعام.. كأنه يـجلس على كرسى هزاز.. ثم اسـتعـان بصديقـه ياقوت وجمع أكـياسـا من الأرز والبطاطس وعاد بـهما إلى الـمركب، وعاد الطاقم يصطاد السمك بأفتال اللنسا ويجتمعون حول أكلة المدفونة.

إننا فى حرب.

ولا يمكن أن ننتظر راحة ونحن فى حرب.

وهم ملتفون حول صوت العـرب.. كلها أنباء النصر.. وكان عبـدالحميد يمـد يده أحيانا إلى الراديو ويحـاول أن يبحث عن محطة أخرى ولكنه يعود سريعا إلى صوت العرب كأنها أوامر عسـكرية أن يستـمع إلى صوت العـرب، إنها خـيانة واتصـال بالعدو لو استـمعت إلى محطة أخرى.. كـانت الروح العسكرية هى التى تلقى على عـبـدالحمـيد هـذه الأوامر، وهو مـتمـسك

بالروح العسكرية حتى يبدو مثلا أمام رجاله.. ونام.

إنها ليلة بعد ليال كثيرة ينام فيها بهذا العمق وهذه الراحة.. ربما لأنه ينام فوق أرضه.

وانتفض واقفا على قدميه الحافيتين عند الفجر على أصوات مفزعة.. إنها غارة.. غارة جوية إسرائيلية على الغردقة وطلب من رجاله أن ينزلوا إلى الشاطىء.. إنهم هناك أكثر أمانا.. وهو يبقى على المركب لعله يستطيع أن ينقذها لو أصيب.. ورفض الرجال أن يتركوا المركب.. إنهم ليسوا عسكريين.. إنهم صيادون.. رجال.. لم ينزل من المركب إلا إبراهيم المرجوشى.. إنه يعرف أن هناك خندقا على الشاطىء لحمايته.

واستمرت الغارة ساعتين.

ولم تصب المركب ولا أى مركب آخر بشىء كان الغارة على الأرض وحدها.. ولم تسقط المدافع المضادة أى طائرة إسرائيلية.. ولم ينطلق أى صاروخ.. ولم تظهر فى السماء أى طائرة مصرية.. وراديو صوت العرب يذيع منذ صباح اليوم التالى ٦ يونيو أخبار الطائرات الإسرائيلية التى تسقط.. إنه لا يقصد الغارة فوق الغردقة.. الغردقة بعيدة وأخبارها لا تصل إلى القاهرة ولا إلى صوت العرب.

وانطلقت الألسن على شاطىء الغردقة تعدد خسائر الغارة، وقال ياقوت ساخرا :

– لم يبق شىء إلا مراكب الصيد.. تركوها للسمك.

وعبدالحميد مغتاظ ثائر.. يحس بأن كل شىء من حوله ناقص.. ضائع.. حائر.. ورغم ذلك فيجب ألا ينقل هذه الثورة إلى رجاله.. إنهم صيادون ويجب أن يحتفظ للجيش أمامهم بكل هيبته.. بدأ بأعمال لا تتوقف.. إصلاح المركب.. تنظيف

المـركب.. ثم قرر أن يدهن الـمركب بلون آخـر.. اللون الأزرق البحراوى.. إنه لون أكـثر تأثيرا فى عمليـات التضليل.. واللون الرمادى يثـير الشبـهات حتى لـو كان على مركب صـيد.. ولم يكن مفروضا أن تدهن المركب دهانا كاملا فيجب أن تبقى فى مظهر المركب القديم الفقير ، ولذلك قرر عبدالحميد ألا يستعمل الفـرشاة فى الدهان بل كـانت تدهن بقطع الخـيش دهانا ليس متكاملا ولا نظيفا كأنها خرق كانت يوما ما ذات لون أزرق.

وكل هذا شـغل الرجال طول اليـوم وحـتى الليل بعيـدا عن المدينة وبعيدا عن الكلام وبعيـدا عن الاستماع لصوت العرب.. حـتى إبراهـيم المـرجـوشى عـامل اللاسلكى فـرض عليـه عبـدالحميـد أن يشترك فى أعـمال المركب حـتى لا يقبل على الشط ويعـود بكلام قد لا يريد عـبدالحمـيد أن يسـمعـه أحد.. وكانت الساعـة قبل منتصف الليل عندما اسـتدعى عبدالحـميد إلى شعبة العمليات.

ووجد هناك ياقوت العباسى وقد استدعى معه.

إنهما مكلفان بمهمة عاجلة.

هناك قوة عـسكرية من ضابط وعشـرين جنديا فى جزيرة صنافير ومطلوب نقلها بصفة سرية على مركب صيد.. ومركب « علم الروم التى يتولاها عـبدالحميد لا تتسـع لنقل القوة كلها لذلك تصـاحبـهـا المركب « مـرجان » الـتى يتولاها ياقـوت.. وعبـدالحميد هو المـسئول لأنه سبق أن ذهب وعـاد من اتجاه جزيرة صنافير.

وأسرع عبـدالحميد إلى المركب وهو يتـعجب من هذا الأمر الذى صدر إليـه.. لماذا يكلف بنقل قوة صنافـير وهو على هذا البـعد منهـا فى حين أن أى مـركب من مـراكب شرم الشـيخ

تستطيع أن تنقلها، والمسافة بين شرم الشيخ وصنافير لا تتجاوز ميلا واحدا.. ربما كانت قوات شرم الشيخ قد تحركت.. ولكن حتى لو كانت قد تحركت فلماذا نسوا وراءهم قوات صنافير.. ثم كيف يتركون قوة فى جزيرة صغيرة وليس معها ولا زورق واحد.

إنه لا يدرى شيئا.

لا أحد فى الغردقة يدرى.

كل ما يدور هو ما تذيعه محطة صوت العرب.

وتحركت « علم الروم » عند الفجر وتحركت خلفها « مرجانة » والمفروض أنهما فى طريقهما إلى رحلة صيد.. وعبدالحميد عاد كله إلى شخصية الريس جاداالله.. وتعمد أن يلطخ قميصه الجديد باللون الأزرق الذى كان يدهن به المركب، ويهلهل بنطلونه، وقدماه الحافيتان تصعدان به فوق السارى.. والهواء يطير شعر ذقنه ورأسه الذى ازداد كثافة وطولا.

لا شىء فى البحر حتى السمك يبدو أنه دخل المخابىء.

وبعد سبع ساعات وصلوا إلى الجزيرة الصغيرة صنافير.. إنهم لا يرون أحدا فوقها.. وطافوا حولها لا أحد لعل أفراد القوة تركوا الجزيرة.. ولعلهم أيضا مختبئون داخلها غير واثقين فى مركب للصيد لا يرفع علما.. لم يكن فى أحد المركبين مرايا يمكن استعمالها فى إطلاق إشارات ضوئية للجزيرة.. وليس فى أحدهما سرينا أو صفارة مدخنة يمكن أن يطلقا بها إشارة صوتية تنبه من على الجزيرة إن كان عليها أحد.. وأمسك جاداالله بلوح صغير من الخشب واقترب به من مدخنة المركب وأخذ يحركه فوق فوهتها.. يرفعه ويخفضه..

وبدأت المدخنة تطلق صوتا أجش ولكنه يمكن أن يصل إلى سمع من على الجزيرة ثم أن التلاعب بدخان المركب بلوح الخشب يمكن أن يثير الانتباه.

وظهر أفراد أرض الجزيرة.

أخيرا.

وبدأوا يتصايحون متحدثين.. إلى أن اطمأن أفراد القوة إلى أنه مركب صيد مصرى جاء لإنقاذهم.. واقترب المركبان من الساحل وألقى كل منهما خطافه.. إن القوة التى كانت فوق الجزيرة مكونة من ضابط وعشرين جنديا وزعوا بين المركبين.. حمل جادالله معه سبعة من الجنود.. إن المركب علم الروم لا تحمل أكثر من ذلك.. لا سلاح.. محرم على مركب الصيد حمل السلاح، ولا شىء آخر من المعدات.. المركب لا تحتمل أى ثقل آخر.

وأرسلت إشارة إلى القيادة.. نجحت العملية.

وتلقى جادالله إشارة من القيادة.. اتجه رأسا إلى السويس.

لابد أن الطريق آمن حتى السويس ما دامت القيادة قد أمرت.. وجاد الله يتحدث مع جنود القوة .. كيف تركوكم وحدكم فى الجزيرة.. لماذا لم تكونوا على اتصال بقيادة شرم الشيخ.. وقال الجنود وهم أكثر حيرة من جادالله.. لقد كانوا فى انتظار مركب التموين التى تصل من شرم الشيخ أول أمس.. ولكنها لم تصل.. وحاولوا الاتصال أمس بالقيادة هناك فلم يستطيعوا.. وتحركات إسرائيل فى المنطقة تحركات كثيفة إنهم يرون من بعيد تحركات مراكب إسرائيل.. مراكب حربية.. ولكنهم لا يعلمون ماذا يجرى هناك.. والغارات الجوية متتالية وقد طاروا فوق صنافير عدة مرات ولكنهم لم يضربوا.. وكل

ما استطاعته قوة صنافير هو تحسين نفسها فى الخنادق وتحت الصخور.. ولم تصلهم أى إشارة من القيادة ردا على إشاراتهم المتتالية، وصوت العرب لا يذيع شيئا خاصا بهم.

وجادالله يسمع وتزداد حيرته.. ولكن لا شك أن القيادة قد حسبت حساب كل شيء ما دامت قد أمرته بأن يتوجه إلى السويس وهى تعلم أن طريق السويس هو الطريق المعرض لتركيز الهجوم الإسرائيلى.. القيادة مطمئنة وصوت العرب مطمئن أيضا.

والمركبان البطيئان يزحفان فوق الماء بسرعة السلحفاة.

وجادالله معلق فوق السارى بأقدامه الحافية ومنظاره المعظم فوق عينيه.. وعند منطقة رأس محمد لمح فى الأفق ثلاث قطع بحرية صغيرة.. لنشات.. لابد أنها قطع من الأسطول المصرى.. لا يمكن أن يكون الأسطول الإسرائيلى قد وصل حتى رأس محمد.. لا يمكن.. واللنشات تقترب وهو يستقبلها من خلف منظاره المعظم.

وفجأة صرخ.

إنها قطع إسرائيلية.

لم يعرفها بأعلامها ولكنه عرفها لأنه سبق أن رآها بذاتها عندما كان فى إيلات.. إن رادار اللنشات المصرية رادار ثابت لا يتحرك، ولكن الرادارات على اللنشات الإسرائيلية تتحرك وتدور حول نفسها.. إنه يعرف هذا.. وهذه لنشات إسرائيلية.

وأرسل إشارة الخطر إلى ياقوت على المركب مرجان، ثم اتجه إلى جهاز اللاسلكى وتعاون هو وإبراهيم المرجوشى واثنان من الرجال فى رفعة من على أرض المركب وإلقائه فى البحر.. وجمع كل أوراق الشفرة وكل أوراقه الخاصة وأشعل

فيها النار وتخلص من آثارها.

كل هذا تم فى دقائق.

وتم على المركب الآخر.

واتفاق سريع مع كل المجموعة.. إنهم صيادون استغاث بهم رجال القوة التى كانت مرابطة فى صنافير لينقلوهم إلى السويس.. هذا هو كل ما يقال.

وأحاطت طلقات النار بالمركبين.. طلقات فوقهما وطلقات حولهما.. إنها طلقات مدافع عشرين مللى.. إنه يعرفها وأوقف جاداالله الموتور.. وفى دقائق كان فوق المركب ستة من الإسرائيليين.. اثنان منهم يحملان رشاشات « عوزى ».. وكلهم يتكلمون العربية بلهجة مصرية.. وصرخ واحد منهم :

– إلى الوراء أنت وهو.

وتلكأ الريس عويضة فلكزه الجندى الإسرائيلى بحافة الرشاش صارخا :

– قلنا إلى الوراء يا راجل يا عجوز يا وسخ.

وعاد يصرخ :

– ورا يا ابن الشرموطة أنت وهو.

وصرخ أحد رجال قوات صنافير :

– خليكم فى أدبكم.. يلعن اللى جابكم.. الشراميط فى بلدكم.

وانقض الجنود الستة يضربون كل من تصل إليه أقدامهم وأكفهم ويطلقون طلقات فى الهواء إرهابا.. وسقط المرجوشى على حافة المركب يبكى.. وجاداالله كان أول من استسلم لأوامر وخطى سريعا إلى مؤخرة المركب، وإذا بجندى إسرائيلى يرفع كفه وينهال بصفعة على وجهه وهو يقول كأنه يسخر منه :

- اثبت مكانك.

والصفعة ترن فوق وجه جادالله.. وعيناه تبرقان كأنه يشعل بهما النار فى خصمه أو كأنه يشعلها فى نفسه حتى يحرق أعصابه قبل أن يثور ويعرض نفسه لرصاص من رشاش عوزى.. ولم يتحرك.. ورنين الصفعة لا يهدأ فى أذنيه.. يحس كأن هذه الصفعة قد رسمت كل مستقبله.. كل خط حياته.. لن يستطيع أن يعيش إلا إذا أسكت رنين هذه الصفعة.

وتجمعوا كلهم فى مؤخرة المركب، وقال الجندى الذى يحمل فى وجوههم الرشاش :

- انتم رجال عبدالناصر.. على جزمتى انتم وعبدالناصر.

وجادالله يضغط أكثر على أعصابه.. إن عبدالناصر هو العلم إنهم يمزقون علم مصر.. ولا يملك إلا أن يبقى ساكتا.

وتولى أحد الإسرائيليين إدارة موتور المركب، وأمسك آخر « بالدومان » عجلة القيادة، ووقف الباقون فى الحراسة وأحدهم يغنى بالمصرى أغنية.. حلوة يا محلى نورها شمس الشموسة.. ثم انقلب يغنى.. بلادى.. بلادى لك حبى وفؤادى.. ثم نظر إلى جادالله وقال فى ضحكة ساخرة :

- خلاص.. بلادك حتبقى إسرائيل.

وبعد ساعة وصلوا شرم الشيخ.

لأول مرة يعرف جادالله ومن معه أن شرم الشيخ وقعت كلها تحت أقدام إسرائيل.. ربما لم يصل الخبر إلى محطة صوت العرب رغم أن الخبر يبدو أنه مر عليه أيام فالخليج الصغير « الجونة » مزدحم بزوارق إنزال الجنود والأرض مزدحمة بالدبابات وقوات المظلات كلها إسرائيلية.. وابتسم جادالله ساخرا من نفسه.. إنها المرة الثانية التى يقع فيها

أسيرا بشرم الشيخ.. المرة الأولى أسرته القوات المصرية والآن تأسره القوات الإسرائيلية.

وساقوهم إلى الأرض.

وأجلسوهم على قرافيصهم فى انتظار وصول المركب الثانى مرجان.. وعندما اجتمعوا كلهم صاح واحد من حملة الرشاشات :

– كله يرفع إيديه لفوق.

ورفعوا أذرعهم إلى أعلى ومر بهم اثنان من الجنود ينزعآن الساعات من كل يد مربوطة فيها الساعة إنه نظام عسكرى لسرقة ساعات الأسرى.. ثم أمروا بأن يخفضوا أذرعهم، وعاد جندى يصيح باللهجة المصرية :

– اللى فى جيبه شىء يخرجه.. كل واحد يفتش نفسه بدل من أن نفتشه.

ولم يكن فى جيوب جادالله شىء سوى خمسة وسبعين قرشا بقية الجنيهات الثلاثة التى كان قد اقترضها من ياقوت وبقية علبة سجائر كليوباترا وولاعة رخيصة.. وأخرج ما فى جيوبه ووضعها فى يديه المفتوحتين وهو جالس القرفصاء.. صامت.. ورنين الصفعة الإسرائيلية لا يزال يملأ أذنيه.. ومر جنود إسرائيل يجمعون ما فى الأيدى الممتدة وتثور شكوكهم حينا فيرفعون الأسير واقفا على قدميه ويفتشونه وقد لا يخرجون منه إلا بمصحف قرآن صغير أو بصورة لابنه أو زوجته ولا يتركون له شيئا.

واستراحوا من جلسة القرفصاء، ومال جادالله على ياقوت وكان جالسا قريبا منه يريد أن يطمئن عليه بكلمة، وإذا بعصا غليظة تنهال فوق كتفه والجندى الإسرائيلى يصرخ :

- ممنوع الكلام يا وسخ.. عبدالناصر مانعكم من الكلام طول عمره وهنا كمان ممنوع الكلام.. انتم تعودتم على الكرباج.. والكرباج وراكم.

ولم يتأثر جادالله بضربة العصى الغليظ كل ما حدث أن ارتفع رنين الصفعة فى اذنيه.. كأن الصفعة تركته قالبا من زجاج يرن كلما مسه شيء.

والشتائم القذرة تنهال على كل الرجال وكأنهم قد اتفقوا جميعا بتبادل النظرات على ألا يردوا عليها.. كلهم صامت.

وبعد ساعات نقلوهم إلى «جونة» أخرى.. قطعة أرض فضاء أحاطوها بالأسلاك الشائكة.. ووجدوا فيها بعض جنود من قوات حرس السواحل المصرى.. وتساءل جادالله بينه وبين نفسه.. أين بقية القوات المصرية التى كانت فى شرم الشيخ.. هل أسرت ورحلت إلى مكان آخر.. أم انسحبت قبل أن يصل اليهود إليهم.. لا يدرى.. ولكنه تمنى لو أنهم أسروا.. لا لأنه حاقد يريد أن يعانى الجميع ما يعانيه ولكنه يحس أن الأسر لا يقلل من قيمة الشرف العسكرى.. لقد أسر فى عملية وهذا أشرف من أن يهرب أو ينسحب من عملية.

وبقوا ليلتين فى شرم الشيخ.. لا أحد يقدم لهم ماء ولا أكلا. وقد يمر بهم جندى إسرائيلى فيلقى إليهم ببسكوتة أو قطعة من شيكولاتة أو سيجارة. يلقيها بينهم ويقف ليمتع نفسه بمشهد تزاحمهم وتعاركهم حول لقمة العيش كأنهم نسانيس فى قفص حديقة الحيوان.. ولكنهم كانوا قد اتفقوا فى صمت على ألا يمدوا أيديهم إلى ما يلقى إليهم.. ولكنهم يريدون على الأقل ماء ليشربوا.. وصاحوا.. ماء.. وجاءوا إليهم بجردل ماء.. ونظر فيه جادالله.. إنه فعلا عطشان.. ولكن هذا

الماء له لون.. لونه أبيض كماء الصابون.. وأخذ ينظر إلى زملائه وهم يشربون.. لم يحدث لأحد منهم شيء.. ورغم ذلك لا يستطيع أن يقنع نفسه ليشرب.. مضى ثلاثة أيام وهو لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ولا يتكلم وكل ما يحس به هو رنين الصفعة على وجهه.

وفى اليوم الثالث جمعوهم فى قارب من قوارب إنزال الجنود مما يسمونه « بعبوعة » وكدسوهم الواحد فوق الآخر داخل حزام من الأسلاك الشائكة.. وأبحر بهم القارب.. والبرد قارس والبحر هائج.. وجنود صنافير وحرس السواحل يتدفأون من البرد أحدهم بالآخر ولم يتعودوا على البحر الهائج فيتقيأون فوق بعضهم البعض، ومدخل القارب تتسرب منه أمواج البحر فتغرقهم، وجادالله واقف معصور بين أجساد الأسرى ويتحمل فوق رأسه القيء ويتلقى ماء البحر كأنه يغتسل بهما، وهو يرقب قيادة هذا الزورق. إن القائد جندى عادى.. شاويش ومعه أربعة يحملون المتراليوزات.. وهم يطلقون أغانيهم ويستمعون إلى موسيقى الراديو.. ويشربون.. ويأكلون.

إنه يقارن بين ما يأكلونه ويشربونه وما يأكله ويشربه الجندى المصرى كأنه فى رحلة دراسية.. وهو صامت لا شيء يمكن أن يقرأ على وجهه، ولا حتى التعبير عن الإرهاق وعن الاستسلام ولا صوت ينطلق فى داخله إلا صوت الصفعة التى ترن على وجهه.

وبعد ثمانى عشرة ساعة وصلوا.

وصلوا ميناء إيلات.

إيلات التى غزاها وفتحها منذ سبعة أيام فقط.

ويرفع كفيه فوق عينيه.. إنه لا يريد أن يرى إيلات وهو أسير بعد أن رآها وهو غاز.

وأنزلهم من « البعبوعة » وصفوهم فى طابور وساروا بهم فى عرض استعراضى فى شوارع إيلات.. إنه رأى هذه الشوارع ورسمها من بعيد وعرف أسماءها من صديقه المرشد عونى الأيوبى.. وزحام الناس على الجانبين يتفرجون عليهم ويشتمون عبدالناصر ويشتمون العرب.. ويشتمون بكل اللغات وكل اللهجات.. بالعبرى والعربى والانجليزى والروسى.. ويسمع لهجة مصرية ولهجة لبنانية ولهجة عراقية.. ويهودى يصرخ ضاحكا فى وجهه :

– مش عايز حاجة من أمك.. أنا حافوت عليها الليلة.

وحول طابور الأسرى حرس كبير يحرسهم من اعتداءات المتفرجين.. ترى هل يمكن أن تكون زهرة بين المتفرجين.. من يدرى.. ربما كانت إسرائيل قد استولت على ميناء العقبة وضمتها إلى إيلات وأصبح من حق أهلها أن يقفوا فى زحام المتفرجين.. وحتى يهرب من كل ما يراه وهو يسير فى طابور الأسرى حافى القدمين والقذارة تغطيه من رأسه وتلف كل جسمه.

ووصلوا بهم إلى مستودع قديم ربما كان جراج سيارات أو مخزن بضائع وحشروهم كلهم فيه ملتصقين أحدهم بالآخر كأن كلا منهم يتنفس بأنفاس الآخر.. وجذبه الشاويش قبل أن يدخل ثم جذب معه واحدا من حرس الحدود وآخر من أفراد قوة صنافير.. كل منهم تميزه ملابسه.. وأخذ الثلاثة بعيدا عدة خطوات وتكلم باللغة العربية وبلهجة قدرها جادالله على أنها

لهجة عراقية وقال فى صوت متعال مغرور وكلماته تنطلق من أنفه :

– الحرب انتهت.. كسبناها وهزمناكم فى ستة أيام.. وعبدالناصر استقال.. تخلصوا من أحلامكم وساعدونا على أن نعاملكم معاملة حسنة حتى لا تضطرونا إلى الضرب.. وأنتم الثلاثة مسئولون عن زملائكم وسنرحلكم غدا إلى بير سبع.

ولم يصدق جادالله.

ولم يصدق أن كل شيء انتهى.

لم يصدق أن عبدالناصر استقال.. لا يمكن أن تصل الهزيمة إلى هذا الحد.

وأدخلوه إلى المستودع وحشروه بين بقية الأسرى.. وبعد قليل دخل جنديان يحملان صفيحة كبيرة وقطعا من الخبز، ووضعا ما يحملانه بينهم وخرجا بلا كلمة.... إنها أول وجبة تقدم إليهم منذ أسروا.. ومضى عليهم ثلاثة أيام لا يأكلون.. وهجموا كلهم على العيش وعلى ما فى الصفيحة.. إن ما فيها مربى سائلة.. كأنها كانت فعلا مربى حلوة ثم اذابوه فى قنطار من الماء.. وصرخ ياقوت فى الجميع وانضم إليه النقيب ضابط قوة صنافير ونظموهم وأعادوهم إلى الهدوء.. واحد واحد.. وكل واحد قطعة من الخبز مغموسة فى ماء المربى.. لم ينل كل واحد أكثر من قطعة فى حجم أصبع اليد.

وناموا بعضهم فوق بعض وأنفاسهم والرائحة الكريهة التى تنبعث منهم تخنقهم.

وألقوا إليهم فى الصباح بقطع من الجبن المتحجر وحمل آخر من الخبز.. ثم قادوهم إلى مجموعة من سيارات نقل البضائع المكشوفة، وفوق كابوت كل لورى اثنان من الجنود

يحمل كل منهم مترليوز.

وانطلقت بهم السيارات دون أن يعصبوا أعينهم كما هى العادة عند نقل الأسرى.. ربما كانت الحرب قد انتهت فعلا، أو ربما كانوا يعتبرونهم من التفاهة بحيث لا يستحقون عصب الأعين.

والطريق طويل.. وهو محشور بين الآخرين فوق اللورى يتلفت حواليه فى برود كأنه سائح يتفرج على ما يمر به كعادة أى سائح يقارن بين ما يراه وما فى بلده.. الشوارع.. البيوت.. الأشجار.. إلى أن وصلوا إلى بير سبع.

معسكر استقبال الأسرى.

معسكر واسع يمتد كيلومترات فوق أرض فضاء ومقسم بالأسلاك الشائكة إلى مربعات.. ومئات من الأسرى.

الأغلبية وجوه مصرية بينها وجوه فلسطينية وأردنية وسورية.

وفرقوا بين الأسرى المدنيين والأسرى العسكريين.

الحمد لله.. إنهم يعتبرونه أسيرا مدنيا.. صيادا.. وقذفوا به بين الأسلاك الشائكة المخصصة للمدنيين.. أغلبهم مصريون.. عمال مناجم المنجنيز والفحم فى سيناء.. ومهندسون.. ومدرسون.. وأطباء من غزة والعريش.. وقضاة.. ومهربو الحشيش.. ووجد نفسه بين كل هؤلاء وقد قسموهم إلى مجموعات.. كل مجموعة داخل حزام الأسلاك الشائكة.. وينامون مسطحين على الأرض.. والحر فى النهار يذيبهم والبرد فى الليل يجمدهم وكل منهم يحتاج إلى الآخر ليتدفأ به.. وأى رأس ترفع من على الأرض يطلق عليها الرصاص.

وكل يوم يلقون بينهم صندوقاً من صناديق البيبسى كولا

مليئا بالبصل والجزر والطماطم والجبن.. لا خبز.. ولا لحم.. هذا كل نصيبهم كل أربع وعشرين ساعة.. وحاول ياقوت أن ينظم توزيع التموين.. ولكن لم يكن الأمر سهلا.. والأسرى يتضاربون حول نصيب كل منهم، والحرس من خلف الأسوار يضحكون.. ثم يلقون بقطعة من الخبز من فوق السور ليتزاحم حولها الأسرى ويضحكون أكثر.

والحراسة عنيفة.. إنها تعبر عن لذة القسوة والوحشية.. الرصاص يطلق فوق رؤوسهم بمناسبة وبغير مناسبة ويفاجأون فى الليل بطلقات الرصاص ثم يقومون فى الصباح ليجدوا جثة أسير ملقاة فوق الأرض بين الأسوار وتبقى ملقاة أمام أعينهم أياما إلى أن يجندوا بعض الأسرى لحملها ودفنها فى التراب.

وجادالله يعيش فى صمت دائم.. لقد اكتشف مخدرا عجيبا.. إنه يعرض رأسه للشمس إلى أن يصاب رغم تعوده على مقاومة ضربة الشمس، ويصاب بنوع من الإغماء يتركه كأنه نائم.. وفى الليل يعيش على صوت الشيخ عبدربه وهو يتلو القرآن.. إنه من عمال المناجم.. وهو يتلو وهو ممدد على ظهره ورأسه على الأرض كما تقضى التعليمات.. إن القرآن رحمة.. إنه كل ما يجده المسلم من رحمة بعد أن تضيع رحمة البشر.

إلى أن جاء دوره وأستدعوه إلى مكاتب المعسكر.. وسألوه عن اسمه وبلده ومهنته وتاريخه وسجلوا كل ذلك بالحروف العبرية فى ورقة ثقيلة علقوها فى رقبته.. إنه يحس وهذا الخيط معلق فى رقبته كأنه عبد مقيد من العبيد الذين يراهم فى الأفلام التى تحكى حكايات العبيد.. يحس كأنه ثور معلق فى ساقية إسرائيلية.. إنه يحس بهذا الخيط الرفيع كأنه يخنقه

ويحس بهذه الورقة الصغيرة المعلقة فوق صدره كأنها صخرة تكتم أنفاسه وتعصر قلبه.

ومندوب الصليب الأحمر يمر مع الضابط الإسرائيلى وينظر إليهم مبتسما كأنه يمر فى رحلة سياحية ليشاهد الآثار الإسرائيلية.

ومضى خمسة وعشرون يوما.

وحملوهم فى اللوارى مرة أخرى عبر طريق واسع عريض أوتوستراد يمر بكل جمال فلسطين.. وكل خير فلسطين.. إلى أن وصلوا إلى معسكر « تكريت» على الساحل قريبا من ميناء حيفا.. إنه معسكر قديم.. كان معسكرا للانجليز وخصصه اليهود منذ البداية كمعسكر للأسرى.. أسرى حرب ٤٨ وحرب ٥٦ واليوم يستقبل أسرى ٦٧.. ومد جادالله بصره وهو يدخل المعسكر.. آلاف.. آلاف من الأسرى.. إنه يلمح من بعيد كأن الجيش المصرى كله قد وقع أسيرا.. والأردنيون.. والسوريون.. وجادالله يقاوم الانهيار.. لم ينته كل شىء.. لم تقع مصر أسيرة.. لابد أن هناك شيئا قد بقى لمصر.

وجد نفسه لأول مرة داخل غرفة من القشلاق.. أخذوه بعيدا عن العسكريين فهو لا يزال مدنيا.. صيادا.. ووجد نفسه مع كل طاقم المركب فى غرفة عادية.. واستراحت قدماه الحافيتان لأول مرة لمجرد أنه وجد نفسه فى الظل بين أربعة جدران وليس فوق التراب.

وانتقل إلى نوع جديد من حياة الأسر.. ساقوهم كل أربعة معا وأوقفوهم عرايا وقاموا بتعفير كل منهم بغبار الد. د. ت. وبعدها بدأوا يمسكون بكل واحد ثم يطبعون على جسمه علامة باللون الأسود مكتوبا عليها كلمات بالعبرية.. يطبعونها

فوق صدره وفوق ظهره وفوق ركبته.. علامات تطبع بالزيت فلا يمكن إزالتها وكأن كلا منهم أصبح ماركة مسجلة « أسر فى إسرائيل ».. وأعطوا لكل منهم حلة « أوفرول » يلبسها فوق لحمه، ثم عادوا بهم إلى العنبر داخل القشلاق.

وهو عنبر يضم أربعين فردا كلهم من الصيادين أهالى غزة وطاقم المركب علم الروم والمركب مرجانة.. وتقدم لهم وجبتان فى اليوم.. وجبه إفطار ووجبة غداء ومن حق كل فرد أن يدبر من الوجبتين وجبة ثالثة للعشاء.. لم يكن يهم جادالله ماذا يأكل.. إنه لا يعرف ما يأكل ولكنه يأكله..

ويقضى كل وقته مع زميله ياقوت ومع الريس عويضة وبقية أفراد الطاقم ويخرج معهم إلى فناء القشلاق فى الساعة المخصصة للفسحة.. وعم شتا صياد عجوز من غزة تعدى السبعين يصيح بين كل حين وآخر.. كلما ضاقت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج.. وعويضة يتحدث عن السمك وعن أولاده.. كل له وحشة فى إحساسه.. السمك والأولاد.. والحرس كله من اليهود العرب.. بل ربما قصدوا أن يكونوا من يهود نفس البلد الذى جاء منه الأسرى.. وفيهم حرس من يهود اسكندرية.. إنهم يتغنون بالاسكندرية وبأيامهم فيها، ويسخطون على حالهم فى إسرائيل.. إنهم هنا كأنهم الطبقة الحقيرة.. وحارس يهودى جاء فى نوبتشية صرخ بمجرد أن دخل.. عبدالله.. ثم انطلق إلى أحد الأسرى يحتضنه ويقبله فى وجهه.. سلامات يا عبدالله.. ازى أخوك حمدى.. والله زمان.. إنه يهودى من القاهرة هارب منذ خمس سنوات وكان صديقا لعبدالله الروح بالروح.

ولم يجر معهم تحقيق جدى.. جاءوا ونادوا على صيادى

العريش وبعد أسبوع نادوا على صيادى شرم الشيخ.. وقام جادالله ومعه طاقم المركب.. وسألوهم عن القوة التى كانوا ينقلونها من جزيرة صنافير.. وأجابوا نفس الجواب.. ثم لا شيء آخر.

وبدأ جادالله يتأقلم مع حياة الأسر.. والإجراءات تخف من حولهم وكلما خفت خيل إلى الأسرى أن الإفراج قريب.. وبعد شهرين بدأوا يوزعون عليهم سجائر.. إنها سجائر رخيصة أقرب إلى سجائر سمسون أرضى التى كان يعرفها فى مصر.. ولكنها سجائر.. منذ ثلاثة أشهر لم يلمس بشفتيه سيجارة.. ثم مدوا حنفيات الماء إلى داخل القشلاق.. ووزعوا عليهم قطعا من الصابون الجاف كأن كل قطعة منه طوبة.. ولكنه صابون.. ورائحة الصابون - حتى هذا الصابون - كأنها عطر الورد.. وهو لا يزال ينام على بلاط العنبر.. قدماه حافيتان ورأسه مسنود إلى قطعة حجر يلفها بقميصه ويغطيها بشعر رأسه الذى يصل إلى قفاه وشعر ذقنه الذى طال أكثر.

كل ما كان يثير اهتمام جادالله هو زميله الرقيب إبراهيم المرجوشى عامل اللاسلكى.. لقد انفصل عن بقية أفراد الطاقم ووضع نفسه فى عنبر آخر.. وقد حادثه جادالله أكثر من مرة وطلب منه أن يعود إلى عنبرهم بين زملائه.. ولكنه لا يعود.. ولا يختلط بهم فى فترات الفسحة.. لعله يعانى حالة نفسيه نتيجة الأسر.. لعله يستريح فى العنبر الثانى أكثر أو لعله يلعب هناك القمار وهو مدمن قمار.

وكان قد مضى حوالى ثلاثة أشهر على الأسر.

ودخل إلى العنبر ساعة الغروب شاويش يعرفون أنه يتبع مكاتب قيادة المعسكر.. وصاح :

– محمود جادالله.

وقام جادالله وسحبه الشاويش معه إلى مكاتب القيادة.. ووجد نفسه يقف حافى القدمين أمام مكتب يجلس حوله ثلاثة، اثنان منهم بالزى العسكرى والثالث مدنى.. واستقبله المدنى قائلا باللغة العربية وبلهجة أقرب إلى اللهجة العراقية وبين شفتيه ابتسامة كبيرة :

– أهلا حضرة الضابط.

واهتز جادالله وضغط على نفسه حتى لا يفضحه اهتزازه، وعاد الرجل المدنى يقول ضاحكا :

– الملازم عبدالحميد مهران.. أهلا بك.

وعين عبدالحميد تتسعان كأنه يبحث لنفسه عن طريق للهرب، إنه يعلم أن القانون الدولى يبيح إعدام ضابط الجيش الذى يتخفى فى زى مدنى.

هل حكموا عليه بالإعدام ؟

ورنة الصفعة تملأ أذنيه.

٤

كان الثلاثة الذين يتولون التحقيق مع الملازم عبدالحميد مهران ينظرون إليه وبين شفتى كل منهم ابتسامة ساخرة.. لم تتغير ابتسامة أحدهم عن ابتسامة الآخر.. ويتوسطهم ضابط طويل القامة ووجهه طويل طول فردة الحذاء، وكان الزى الذى يرتديه واللهجة الانجليزية التى يتكلم بها تجعله يبدو فى شخصية أمريكية.. لعله يهودى أمريكى جاء إلى إسرائيل مع الحرب.. وعلى يساره كان يجلس ضابط قصير القامة منفوخ الكرش متجهم الوجه رغم الابتسامة الساخرة التى تعلو شفتيه وكان يتكلم اللغة العبرية، ويتكلم كثيرا وتخرج كلماته سريعة كمدفع مترليوز وفيها لهجة اللغة الروسية.. لعله يهودى روسى جاء يحارب مع الأمريكى.. إن مصر لا تحارب إسرائيل إنها تحارب العالم كله.. وكان يتولى توجيه الأسئلة الرجل الثالث الجالس على اليمين.. إنه منفوخ أصلع يرتدى الملابس المدنية.. بدلة كاملة وكرافت.. وكان أهداهم فى كلماته وابتسامته الساخرة أرحم فى سخريتها من ابتسامة الاثنين الآخرين.. وكان الثلاثة يتكلمون ثم يحدد اليهودى الأمريكى السؤال ويتولى عضو اليمين توجيهه إلى عبدالحميد باللغة

العربية وبلهجة تؤكد أنه يهودى عراقى وقال اليهودى العراقى :

– لماذا أخفيت عنا أنك ضابط فى الجيش ؟

وشد عبدالحميد قامته وهو واقف على قدميه الحافيتين وركز على أعصابه فى شخصية المقاتل وقال وهو يتعمد لهجة اللامبالاة حتى يثبت لمن أمامه أنه لا يخاف :

– حتى أحمى نفسى.. وقد عرفنا أنكم تقتلون صغار الضباط الشبان.

وقال اليهودى العراقى فى لهجة هادئة :

– بالعكس.. إننا نعامل الضباط معاملة فى غاية الإنسانية.. إنهم على الاقل ينامون على سرائر وقد ضيعت على نفسك هذه الفرصة فنمت على الأرض.

وقال عبدالحميد فى لهجة قوية :

– ليس مهما أن أنام على الأرض مادمت أحمى نفسى.. وأنى أعرف مقدما أنكم ستوجهون إلى أسئلة لا أريد الإجابة عليها فتقتلوننى أو تعتدون على وأنا أعزل.

وترجم العراقى إجابته للأمريكى والروسى ثم قال :

– إننا لسنا فى حاجة إلى أن نسألك.. المهم.. ما هو مركزك.. ضابط فى أى قوة ؟

وقال عبدالحميد بسرعة :

– أنا بحرى سواحل.

وقال اليهودى العراقى :

– وزميلك.

وقال عبدالحميد وقد ارتفعت جفونه فوق عينيه :

– زميلى من ؟

وقال اليهودى العراقى وقد اتسعت ابتسامته الساخرة :

– حضرة الضابط ياقوت العباسى.

وأجاب عبدالحميد بسرعة لا يبدو عليه أى تردد :

– بحرى سواحل أيضا.

وكان هذا هو ما اتفق عليه عبدالحميد وياقوت منذ الأيام الأولى فى الأسر.. أن يدعيا إذا انكشف أمرهما بأنهما من ضباط السواحل حتى لا يقعا تحت أسئلة خاصة بأسرار السلاح البحرى وحتى يكونا أقل أهمية عند العدو.

وقال اليهودى العراقى ضاحكا :

– ولماذا اخترتما حرس السواحل.

وقال عبدالحميد :

– لم نختر شيئا.. تخرجنا وكان ترتيبنا فى آخر الدفعة فوضعنا فى السواحل.

واستمر اليهودى العراقى يترجم الأسئلة التى يحددها اليهودى الأمريكى :

– بصفتك ضابط سواحل.. فلابد أنك تعرف مراكز زوارق الطوربيد.

وقال عبدالحميد وهو يدعى البراءة وكأنه ساخط على حظه :

– أبدا.. إننا أشبه برجال البوليس المدنى.. كل مهمتنا هى مطاردة المهربين وكل ما نعرفه هى مراكز التهريب.

وقال اليهودى العراقى :

– ماذا كنت تفعل فى منطقة العقبة ؟

وقال عبدالحميد :

– إنها أنشط مناطق التهريب.. إن الحشيش يأتينا من

عندكم. وقد قامت الحـرب ونحن فى طريق العودة وكلفنا بنقل القوة التى كانت فى صنافير.

وقال اليهودى العراقى :

– ماذا كانت أسلحة هذه القوة.

وقال عبدالحميد بسرعة :

– نحن لا نحـمل أسلحة فى المـركب ولم نصل إلى الأرض لنعرف ماذا كان لديهم من أسلحة.. لابد أنكم عرفتم كل شىء.

وقال اليهودى العراقى :

– ربما ألقيتم أسلحة فى البحر.

وقال عبدالحميد :

– لا أدرى.

وتوالت الأسئلة وكان من بـينها أسئلة عجيـبة.. هل تعرف فلانا وفلانا وفلانا.. وكل فلان هو شخـصية مهمة فى السلاح البحرى.. وعبدالحميد يرد.. لا أعرفه.. لا أعرفه.

وقال اليهودى العراقى :

– إنك تناور.. وأحب أن أقول لك إننا نعرف كل شىء.

وقال عبدالحميد فى استخفاف.

– إذن لم تسألنى مادمتم تعرفون كل شىء ؟

وابتسم اليهودى العراقى ابتسامته الساخرة وقال :

– قل لى يا حـضرة الضـابط.. لو أردت أن تحج إلى مكة.. لا شك إنك مـسلم وتحب أن تزور مكة.. فى أى طريق تخـتار للحج.. الطائرة أم المركب ؟

واحتار عـبدالحميـد فيما يقـصده المحقق بهـذا السؤال ثم أجاب فورا :

– أختار الطائرة.

قالها فقط ليهرب من سؤال خاص بالبحرية.

وقال اليهودى العراقى وهو يضحك :

- لماذ لا تأخذ مركبك وتذهب إلى ميناء الحمضية السعودى ومن هنالك تذهب إلى مكة.

وارتعشت رموش عبدالحميد فوق عينيه... إنهم يعرفون كل شيء فعلا.. إنه يقصد الميناء التى رسا عند حدودها وهو فى طريقه إلى العقبة ليتجسس على إيلات.. ولكن كيف عرفوا.. من أبلغهم.

وقال عبدالحميد وهو يدعى البراءة :

- لا.. هذا طريق بعيد.

وابتسم اليهودى العراقى ثم مال على اليهودى الأمريكى والروسى وأخذوا يتكلمون باللغة العبرية فترة، ثم التفت إلى عبدالحميد وقال وهو يبتسم له ابتسامة هادئة :

- كم عمرك يا ابنى.

وقال عبدالحميد :

- اثنان وعشرون عاما.

وقال اليهودى العراقى فى صوت هادىء :

- إنك فى عمر ابنى.. وإنى أتمنى لك ما أتمناه لابنى.. أن تعيش وتعمل فى سلام.. لا تصدقوا ما يقال لكم.. أنتم ضحايا عبدالناصر فلا تصدقوه.. وانتهوا منه قبل أن ينتهى منك.

وشد عبدالحميد قامته وقال فورا كأنه لم يعد يستطيع أن يحكم عقله :

- الذى يحارب لا يكون ضحية ولكنه شهيد.. وعبدالناصر يسير بنا حيث نريد أن نسير.. ونهايته هى نهايتنا كلنا.

ونظر إليه اليهودى العراقى فى تعجب ثم هز رأسه فى

يأس وقال :

- غدا قد تفهم.. أنتم مساكين غلابة. وأشار إلى الحرس وسحبوه عائدين به إلى ثكنة الأسرى المدنيين.

ودخل الثكنة وهو يبحث بعينيه على زميله ياقوت، واختلى به بعد أن تركه الحرس وروى له كل شىء.. ولكن ياقوت لم يستدع للتحقيق بعده مباشرة.. مضت ثلاثة أيام قبل أن يدعوه.

وغاب ياقوت أكثر مما غاب عبدالحميد.. غاب عشر ساعات.. فهو لم يستطع أن يتمسك بهدوء عبدالحميد وانطلق لسانه الطويل يتكلم ويشتم ويسخر.. وأشاروا إلى الجندى الإسرائيلى المتخصص فجاء وانهال عليه بالصفعات بينما جنديان آخران يمسكانه من ذراعيه.. ولكنهم أخيرا أعادوه إلى الثكنة وأخذ يروى لعبدالحميد ما حدث له وهو يضحك ساخرا.

وعاش الاثنان فى انتظار الإعدام الذى تحكم به اتفاقية الأسرى على كل ضابط يتخفى فى شخصية مدنى.. وعبدالحميد لا يكف عن البحث فى فكره عن الذى أبلغ عنه السلطات الإسرائيلية.. لابد أنه ابراهيم المرجوشى.. إن ابتعاده عنهم وإصراره على الإقامة فى ثكنة أخرى يؤكد اتهامه.. وهو يشك فيه ولا يثق فى تصرفاته.. ولكنه حرص على ألا يثير هذا الموضوع حتى مع زميله ياقوت.. ليس هذا وقته.. أى إشارة إلى أن بينهم خائنا ستثير ضجة فى المعسكر كله لن تكون فى صالحه.. ثم من يدرى.. لعله أخطأ.. ولعل لليهود وسائل أخرى للوصول إلى ما يريدن معرفته.. وهو يقضى الوقت مع الريس عويضة يوصيه على طاقم المركب بعد أن يرحل عنهم.. ويحدثه عن عائلته حتى إذا عاد عويضة إلى مصر يروى لهم

كل شيء.. وكان قد سمح للأسرى قبلها بكتابة الخطابات وإرسالها عن طريق الصليب الأحمر.. ولكنه لم يكتب لأهله.. كان يستطيع أن يكتب باسم الريس محمود جادالله.. لا أحد من عائلته يعرف هذا الاسم.

وبعد أسبوع جاءوا وأخذوا عبدالحميد وياقوت.. لم يأخذوهما إلى الإعدام، ولكن اخذوهما إلى معسكر الأسرى العسكريين.. آلاف.. آلاف من العسكريين مصريون وأردنيون وسوريون.. إن بين الأسرى خمسة لواءات من الجيش المصرى.. ووجد عبدالحميد نفسه فى ثكنة بين عدد من زملائه الضباط.. وله سرير.. وفوق السرير مرتبة وبطانية ومخدة.. وأعطوه «أوفرول» جديدا ليرتديه.. وحذاء.. يخيل إليه أنه لأول مرة يضع قدميه فى حذاء.. ووجد أنه لم يعد فى حاجة إلى ذقنه الطويل فحلقه وحلق شعر رأسه الذى كان يتركه يتدلى فوق قفاه.. إنه الآن ضابط وليس المعلم محمود جادالله.. وكلهم يعرفونه على أنه ضابط بحرس سواحل.. لا أحد يعرف أنه ضابط مجموعة القناصات فى سلاح الغواصات.. حتى الإسرائيليون.. لعل ابراهيم المرجوشى احتفظ بهذا السر ورغم كل ما افشى به من أسرار فقد كان يعرف أنهم اتفقوا على أن يقدموا أنفسهم على أنهم حرس السواحل.. ولكن أين ابراهيم المرجوشى.. لماذا لم يحول إلى معسكر الأسرى العسكريين رغم أنهم لا شك عرفوا أنه رقيب فى الجيش.. ربما فقد احترامهم له إلى حد أنهم ضنوا عليه بأن يرفعوه إلى مرتبة العسكريين.. إن معاملة الأسرى تختلف باختلاف الموقف الذى أسر فيه كل أسير.. من يؤسر وهو يقاتل يحترم أكثر ممن يؤسر وهو هارب أو وهو مستسلم.. إن

هذا يبدو فى معاملة اليهود للعسكريين وبينهم اللواء صالح البرديسى.. لقد أسر وقت معركة عنيفة كان فيها بطلا، ورغم عدد الإسرائيليين الذين سقطوا أمامه فقد أسروه وهم يحترمونه.. يحترمون البطولة العسكرية.. وهو يقف فى المعسكر بزيه العسكرى ويحتفظ بعلامات رتبة فوق كتفه الأيسر بينما نزعت من فوق كتفه الأيمن كما تقضى تقاليد الأسر، ويمر به ضباط وجنود إسرائيل فيحيونه التحية العسكرية.. إنه القائد الفعلى للمعسكر وقد استطاع بشخصيته أن يكتسب ثقة الأسرى بمن فيهم الأردنيون والسوريون.. وكان يحدث الكثير داخل المعسكر بما يتطلب تدخل اللواء صالح البرديسى.. اعتدى مرة جندى من الحرس الإسرائيلى على أسير برتبة مقدم فقامت مظاهرة بين الأسرى وبدأوا يتبادلون القذف بالحجارة مع جنود الحرس، ودخلت فرق من الحرس بالهراوات وتطلق الرصاص فى الهواء إلى أن قرر اللواء صالح أن تتوقف الثورة بعد أن توصل إلى إبعاد الجندى الذى تسبب فيها.. وكانت العقوبات تفرض أحيانا بمنع توزيع السجائر أو بالحرمان من وجبة من وجبات الطعام إلى أن يتدخل اللواء صالح.. بل إنه قامت حوادث كثيرة نتيجة تردد المجندات الإسرائيليات على المعسكر.. إنهن يثرن الأسرى.. إنهن يذكرن الأسرى بالحرمان الطويل.

واستطاع اللواء صالح أن يقنع السلطة بأن تمنع دخول المجندات الإسرائيليات فقط لأنهن جميلات. واستراح الأسرى وإن كانوا بقوا ينتظرون كل ليلة أحد أى مساء السبت ليلمحوا من بعيد الحفلات الراقصة التى يقيمها رجال قوات الحرس مع بنات إسرائيل.. كان نفوذ اللواء صالح الذى يفرضه باحترامه

لنفسه نفوذا قويا إلى حد انتشرت إشاعة بأنه كان زميلا لموشى ديان فى كلية هيرست بانجلترا وأنه يجامله كصديق.

والهدايا تصل إلى عبدالحميد عن طريق الصليب الأحمر.. هدايا كثيرة بما فيها شبشب زنوبة ومع تحيات وزير الشئون الاجتماعية.. لا أحد منهم يتقبل تحية أحد.. لا يريدون التحية.. يريدون الحرية.. وهو بين الحين والآخر ترن فى أذنيه رنات الصفعة التى تلقاها على وجهه من البحار الإسرائيلى الذى قبض عليه.. أصبحت هذه الرنات كنوبات الصداع تنتابه بين الحين والحين.. ويمتلىء صدره بالنار.. نار الغيظ.. يجب أن يرد هذه الصفعة.. ولكن كيف.. كيف.. وقد بدأ يفكر فى الهرب هو وزميله ياقوت والرائد شاهين مرسى الذى كان قائدا لقوة جزيرة صنافير.. هل يهربون من البحر أم يجتازون المزارع إلى أن يصلوا إلى الأردن.. ويتدارسون ويرسمون ثم لا شىء.. ولكنه يتمنى أن يهرب إلى الأردن ومن هناك يصل إلى العقبة.. إنه هناك يستطيع أن يصل كشاب مدنى من عائلة صديقه المرشد عونى الأيوبى، ويستطيع هناك أن يتزوج زهرة ليقيم كأى عائلة عادية، ومن هناك يستطيع أن يتسلل إلى داخل ميناء إيلات ويقوم بعملية الانتقام من الصفعة التى لا تزال ترن فى أذنيه.. ثم يهرب من خياله ويجلس ليكتب خطابا إلى والده.. إنه لا يستطيع أن يكتب كل شىء فالخطابات تمر صراحة إلى الرقيب.. المسموح به هو فقط السؤال عن الصحة والعافية.. هل سيكتب لزيزى فتاة الميناء.. فتاة الاسكندرية التى عاش معها أكثر من عام.. لا.. إنه لا يريد أن يكتب إلا لزهرة.. هى التى أعطته.. أعطته إحساسه وزهوه بعمله العسكرى.

إلى أن بدأ الإفراج.

تم أولا ترحيل الأسرى الأردنيين.

وبعدها بشهر ترحيل الأسرى السوريين.

وبعد ثلاثة أشهر عن عبدالحميد مع باقى أسرى القوات المصرية.. أفرج عنه بعد تسعة أشهر وهو أسير.. واستقبلوا على أرض مصر بالموسيقى تعزف لهم.

ووقف عبدالحميد أمام الفرقة الموسيقية التى تعزف وقد لوى شفتيه فى قرف.. إن رنة الصفعة فى أذنيه تعلو على كل هذا الصراخ الموسيقى.. لماذا الموسيقى.. لماذا الفرحة.. إنهم لم ينتصروا.. إنهم عادوا مهزومين كجرحى الحرب إن جرح الأسر لا يشفى أبدا إلا إذا ضمده بأسير إسرائيلى.

وبدأ يسأل منذ اللحظة الأولى عن طاقم سفينته « علم الروم». واهتدى إلى ضابط المخابرات المختص. لقد أفرج عن الأسرى المدنيين قبل شهور من الإفراج عن الأسرى العسكريين.. وقال ضابط المخابرات كأنه يحاول أن يفرحه ويخفف عنه :

- لقد عرفنا قصتك وأنت أسير.. واكتشفنا المسئول عن هذه القصة.

من ؟

إنه إبراهيم المرجوشى.

لقد عاد المرجوشى من الأسر منذ شهرين ، وبمجرد وصوله بدأ يتحرك تحركات غريبة ويقول كلاما غريبا ويسأل أسئلة غريبة فأخذوه وفتشوه ووجدوا فى جيوبه مائتى جنيه عملة مصرية وطربة حشيش. وبقوا معه حتى اعترف.. هو الذى أبلغ عنه وعن زميله ياقوت.. وهو مقدم للمحاكمة.

وقـال عبـدالحمـيد كلمـة واحدة كـأنه يخفف التـهمـة عن المرجوشى:

- إنه لم يقل لهم إنى ضابط غواصات.

ولا يدرى ما حدث للمرجوشى بعد ذلك.

وقد أخذوه إلى الكلية الحربية وأبقوه هناك أياما يلقون عليه فى كل يوم محاضرة.. إنهم يضعـونه تحت عملية غسيل مخ.. لن يغسل مـخى إلا الانتقام من الصفـعة التى لا تزال ترن فى أذنى.. إن الإنسان قد يقتل وتموت فيه روحه وأنا قتلت وإن لم تمت فى إلا كرامتى ولن أعود إلى الحـياة إلا بعد أن استردها.. وهم يحـدثونـه عن جـمـال عـبـدالناصـر.. ويبـررون له كل تصرفاته.. وهو يصرخ بينه وبين نفسه.. اسمعوا.. إنى لم أكن أتحمل كلمة واحدة ينطقها إسـرائيلى ضد ناصر.. كنت أعتبره العلم الذى نرفـعـه فى الحـرب والذى يمثـل كل قيـمـتنا وكل كـرامتنا، ولكننا هنا بعـيدا عـن الأعداء وبيننا وبين أنفـسنا لا أحس بعـبـدالناصر إلا كـحـاكم أخـذنا إلى ما نحـن فيـه.. إنه المسـئول.. إنه المـسئـول.. ولن يعفيـه من مسـئوليـته إلا أن يسترد لنا كرامتنا ويرتفـع بنا فوق هزيمتنا.. دعونى أحارب.. لا تسمعـونى هذا الكلام حتى لا أفقد إيمـانى بأنى استطيع أن أحارب.

وأفرج عنه من معـسكر الكلية الحربية، كمـا سبق أن أفرج عنه من معسكر الأسرى.

وعبدالحمـيد فى ذهول.. لا يمكن أن تكون هذه هى القاهرة، وهذه هى الاسكندريـة، وهذه هى مـصـر كلهـا.. هذا الهـدوء واللامبالاة كأن شيئا لم يحدث.. كأننا لم نهزم فى حرب وكأن إسرائيل لم تحتل سيناء وكأن ثلاثا من أكبر مدن مصر ليست

تحت رحمة نيران العدو.. وكأن مليونا من أهل القناة لم ينزعوا من بيـوتهم ومن شوارعـهم.. أين هم أهل القناة.. إنه لم يرهم فى بيوتهم ولا يراهم هنا.. لعلهم ذابوا.

وقضى عبدالحميد يوما واحدا مع أبيـه وأمه ثم جرى إلى قـيـادته فى السـلاح البـحـرى.. إنه يـريد أن يعـمل.. يريد أن يتحرك.. لم يعد يحتمل الراحة والاسترخاء حتى لإشباع شوق أبيـه وأمه إليـه.. والمفـروض أن الجندى الذى يقع فى الأسـر يعامل بمقـاييس خاصة بعد عودته.. إنه غالبـا يحال إلى أعمال مكتبية، فقد يكون الأسر قـد أضعف فيه روح القتال، ثم إنه لو قـاتل وأسر مـرة أخرى فـإنه يعدم فـورا، ويعامله العـدو بلا رحمـة كأنه مجـرم عائد. ولكن القـادة يعرفون عـبدالحمـيد.. يعرفـون ما يخـفيه من إصـرار على المغـامرة.. يعـرفون إنه شـخصـية أقـوى من الأسر.. فـتـركوه يعـود إلى كل حيـاته العسكرية.

المهم أن يشترك فى عملية.

يريد أن يشترك فـى عملية يرد بها على هذه الصـفعة التى يملأ رنينها أذنيه.

والأيام تمر بلا عمليات.

وهو يفكر فى أن يقـوم بعـمليـة لحـسـابه الخـاص.. نفس العلمية التى خطرت له أيام الأسر..أن يذهب إلى العقبة ويتزوج زهرة ويقـيم هناك إلى أن يتمكـن من القيـام بعمليـة.. عمليـة تدمير.. ولكنه لا يستطيع أن يقنع نفـسه.. إنه عسكرى وروحه العـسكرية تفرض عـليه أن يتـحرك كـعـسكرى.. يتحـرك مع الجيش ومع القيادة لا فى عملية فردية.

وفجأة طلب نقله من مجموعة القناصات إلى فرقة الضفادع

البشرية، ربما لأنه قدر أن مجال العمليات فيها أوسع.. وأجيب إلى طلبه.. وعاش أيامه كلها يستعيد التدريب ويعرض نفسه لأقصى المغامرات.. لا شيء آخر يملأ كل دقائق عمره.. إنه يعيش حالة الحرب كاملة كأنه فى داخل ميدان القتال.. حتى زيزى.. فتاة الميناء.. إنها تجرى وراءه.. تحاول أن تستعيده.. لا.. لا وقت لزيزى.. إننا فى حرب.

وكان قد مضى أكثر من عام.

أوائل عام ١٩٦٩.

وتقررت عملية تقوم بها الضفادع البشرية.. عملية ميناء إيلات.

الميناء التى دخلها كغاز.. وعاد إليها كأسير.. إنه يعرف حتى أسماء حواريها.

وطار عبدالحميد وخمسة من زملائه إلى المملكة العربية السعودية.. وكلهم فى براءة الملائكة.. إنهم فى طريقهم لأداء العمرة وزيارة قبر الرسول.. واستقبلوا هناك فى صمت وتحركت بهم سيارة كبيرة فى طريق طويل لا يمر بمكة ولا بالمدينة.. طريق انتهى بهم إلى ميناء الحمضية فى أعلى شمال خليج العقبة.. واستقبلوا هناك فى صمت.. ثم عادت السيارة الكبيرة تتحرك بهم عبر الصحراء التى لا نهاية لها.. وهم كلهم مختبئون تحت سقف السيارة والسيارة نفسها سيارة مدنية.. لا شىء يثير الشبهات.. إلى أن وصلوا إلى نقطة حرس الحدود.. إنه نفس المركز الذى لجأ إليه عبدالحميد فى العملية الأولى.. وهو نفس الضابط السعودى ولكنه لم يتعرف على عبدالحميد.. لقد استقبله فى المرة الأولى كصياد حافى القدمين وشعر رأسه وذقنه يغطى وجهه، وقميصه مهلهل

وبنطلونه متآكل.. ولم يحاول عبدالحميد أن يذكره أو يعرفه بنفسه.. والضابط السعودى يستقبلهم بفرحة وعيناه تنطقان بالإعزاز والفخر.. إنه لا يشتم جمال عبدالناصر.. السياسة تغيرت.. والسياسة هى التى تحكم مشاعر الناس.. وقد كان عبدالناصر مهزوما سياسيا فى السعودية.. وقد صفيت آثار الهزيمة.. وعبدالحميد يسائل نفسه.. هلى تصالحوا مع عبدالناصر اقتناعا به أم شفقة عليه بعد هزيمته العسكرية.

وقضوا يومين تحت سقف بيت صغير فى مركز الحدود وهم يستعيدون كل تفاصيل ميناء إيلات، ويحفظون المسالك بين الأسلاك الكهربائية التى سبق أن أكتشفها عبدالحميد فى القاع، ويستعيدون الخطة كاملة.

وفى الليل.. تحرك زورق مطاط بين شعب المرجان التى سبق أن تراقص بينها الريس عويضة بمركبه « علم الروم ».. إلى أن وصلوا إلى بعد خمسة كيلومترات أمام ميناء العقبة.. وغاص خمسة منهم فى الماء وفوق ظهر كل منهم عبوة أكسجين تكفيه ثمانى ساعات، وحول معصمه خيوط متصلة بقطع من الألغام والعبوات الناسفة يشدها من أعلى أكياس صغيرة من الهواء تطفو فوق سطح الماء حتى تخفف الثقل عن ذراع الضفدع الذى يسعى تحت الماء.

وهم يعرفون القطع البحرية وأماكنها من الميناء.. وكل منهم يعلق فى رسغه ساعة بوصلة تدله على الطريق إلى كل قطعة.. ويقتربون من قاع القطع البحرية ويحشون أو يرفعون ما علق به من حشائش بحرية فى مساحة صغيرة ثم يلصقون بقاع المركب اللغم المغناطيسى الذى ينفجر بالتوقيت.. مدمرة.. طراد.. غواصة.. ولكن عبدالحميد يريد أيضا قطعة

أخرى.. يريد الزورق الذى سبق أن أسر المركب « علم الروم » وخرج.. منه الجندى الإسرائيلى الذى صفعه ولا تزال صفعته ترن فى إذنيه إنه يعرف بهذا الزورق.. إنه زورق إيطالى من نوع « باجالتو » وقد درس هذا النوع حتى القاع.. إنه يستطيع أن يميزه من القاع.. ويزحف الضفدع.. بين المراكب حتى يجده.. يجد الزورق الذى يبحث عنه.. ولصق به اللغم.. واستراح.

قضوا فى قاع إيلات ثلاث ساعات ثم عادوا كلهم سالمين إلى زورق المطاط الذى كان فى انتظارهم.. ثم وصلوا إلى المركز السعودى.. وهناك.. من بعيد.. سمعوا صوت الانفجارات.. ولمعت فى السماء أنوار الحريق.

إيلات تحترق.

إسرائيل تحترق.

وسكت الرنين عن أذنى عبدالحميد.

لقد سمع رد الصفعة.

ولكنه يسمع الرنين يملأ صدر مصر كلها.. هناك صفعة أكبر تلقتها مصر ولم تردها.

وكل شىء يتغير

وكل شىء يتحرك وهو يتحرك معه.

وقبل اكتوبر ٧٣ بشهور كان يقوم بنفس المهمة التى كان يقوم بها منذ تخرجه.. الاستطلاع.. على مركب صيد أيضا.. واختار معه أيضا الريس عويضة.. وأطلق على المركب نفس الاسم « علم الروم » وإن لم يكتبه على حافتها حرصا على أن لا تتذكره إسرائيل.. أن « علم الروم » الأولى لا تزال فى الأسر.. ولن تؤسر علم الروم الثانية.

وقـد وصل بمركـبـه حتـى باب المندب فى مـدخل البحـر الأحمر.. من هناك كان يشتـرك فى عملية خنق إسرائيل.. وهو واقف فـوق السارى وذقنـه طويل وشعـر رأسـه يغطى قفـاه وقميصه مهلهل وبنطلونه متآكل وقدماه الحافيتان فوق البحر.

ولن تنتـهى حكايات الريس محـمود جـادالله.. وفى أعمـاق البحـر الأحمر جـزيرة صخـرية صغيـرة أصبحـوا يسمـونها «جزيرة جادالله».

رقم الإيداع ٩٨/١٤٤٩٤
الترقيم الدولى
I. S. B. N.
977 - 08 - 0784 - 2